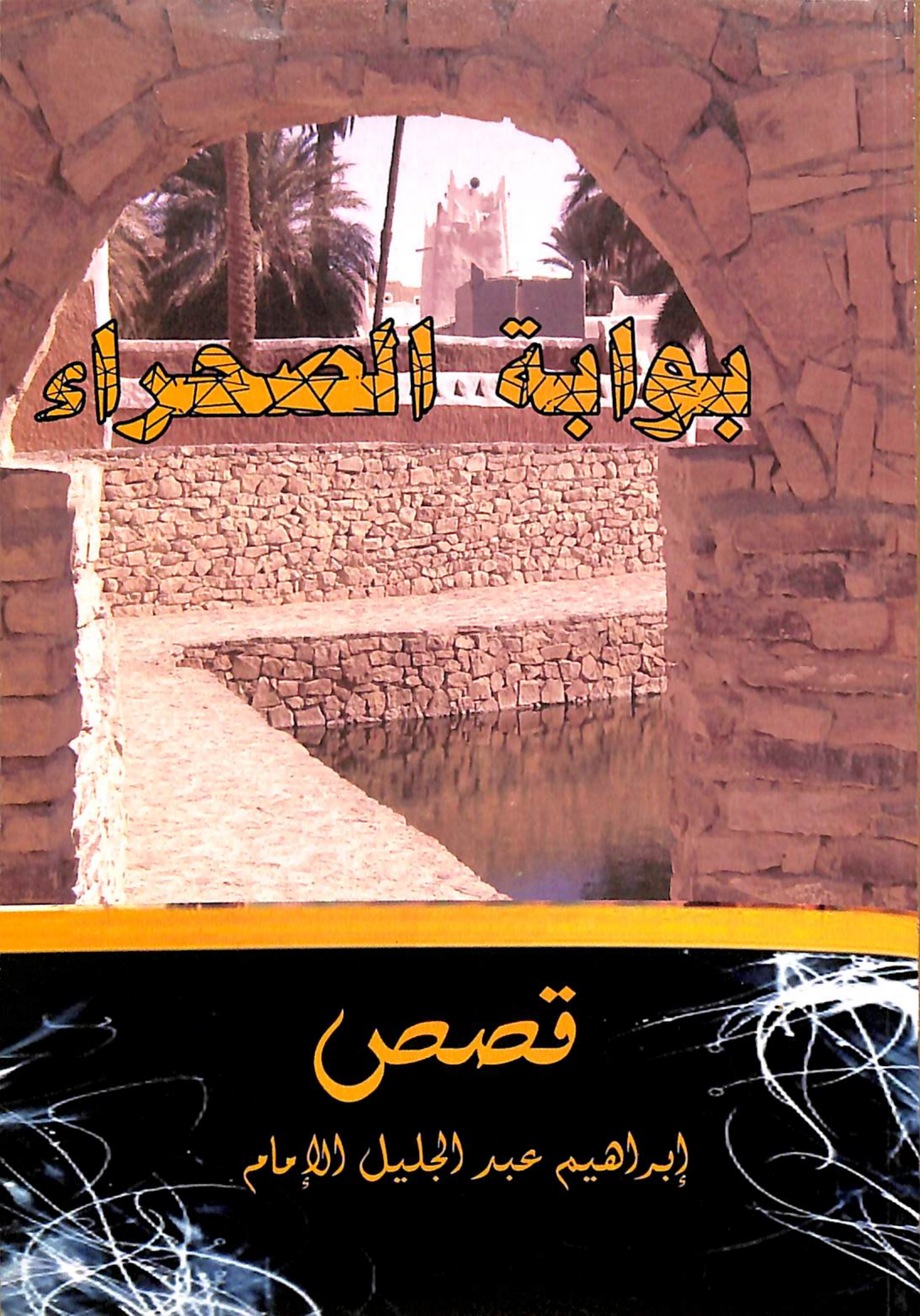


بوابة الصحراء

قصص

إبراهيم عبد الجليل الإمام

بوابة الصحراء

مجموعة قصصية

إبراهيم عبد الجليل الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

بوابة الصحراء - إبراهيم الإمام – مجموعة قصصية

الطبعة الأولى 2015.

الغلاف تصميم الفنان : عبدالمنعم الموفق

رقم الايداع المحلي : 380/ 2015 دار الكتب الوطنية

الرقم الدولي الموحد : ردمك 5-1519-1-9959-978 ISBN

طباعة : الدار العالمية للنشر بالاسكندرية .

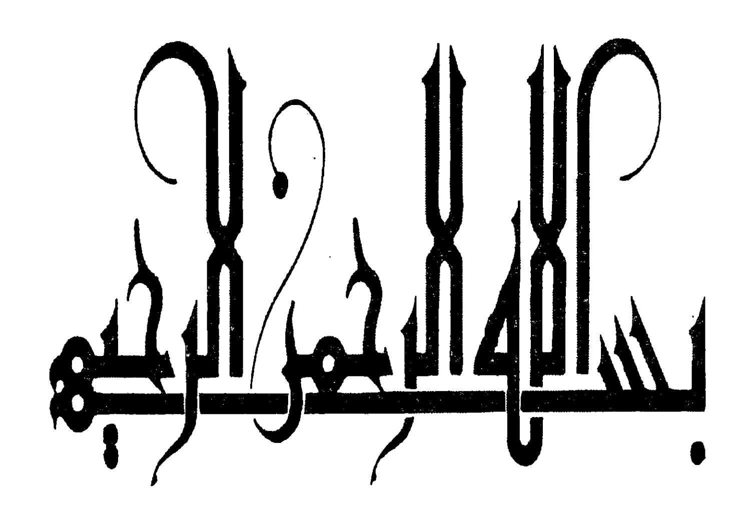
دار الكتب الوطنية

بنغازي – ليبيا

هاتف : 9090509 -9096379 -9097074

بريد مصور : 9097074

البريد الالكتروني : nat_lib_libyahotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الأحفاد :

الذين ورثوا من بناة البوابة كل هذا الإرث العظيم .

وأعجبُ ما فيها الأمرِ معيشةٍ

على سائرِ الأيامِ عينٌ بها تجري

أحمد بن حجر من قصيدته في مدح مدينة غدامس في القرن العاشر الهجري .

بوابة الصحراء

" أن تكون رأساً لذبابة خير من أن تكون ذيلاً لأسد "

ترجمة مثل غدامسي قديم .

1

طرق البوابة الضخمة للحصن .. فتح الحارس خوخة صغيرة في قلب البوابة الضخمة الحصينة .. انحنى ليلج .. أشار بيده محييا .. لم يكترث الحارس لإشارته .. مشى في طريق يعرفها جيدا .. خطى في فناء الحصن خطوات .. أوصلته إلى الدرج الحجري المؤدي لأعلى الحصن .. ارتقى الدرجات رويدا رويدا .. وصل لأعلى الحصن .. وجده جالسا جلسته المفضلة .. متكأ على جدار .. مستمتعا .. أمامه أوانٍ لأنواع مختلفة من التمر .. إلى جوارها كوبٌ ضخمة مترعة باللبن .. يتأمل ليل المكان .. بنجومه الفضية .. هلاله الوليد يسبح في بحر من السواد .. فض بكارة السكون قائلا :

- مولاي **ورنوغن** ... حملت القوافل أنباء سيئة .

استفسر ورنوغن دون أن يشيح ناظريه عن مشهده الليلي الرائع.

- أي القوافل التي حملت السوء هذه المرة ؟.
- قوافل الشمال .. نقلا عن قوافل قادمة من الشرق يا مولاي .

- هممهم . بيزنطة إذا من جديد .. هممهم .

واصل الرسول :

- كلا يا سيدي .. يقولون حسب ما وردنا من تلك القوافل أنهم أعراب قادمون من مصر .. يتتبعون بيزنطة وجنودها .

انتظر تعليقه .. استمر في نقل الرسالة بعد أن تجاهله :

- سيمرون بنا !.. لا شك في ذلك !! .. فحدود بيزنطة تمتد إلى أبعد من أراضينا .

وقف من جلسته .. سار نحو الدرج الحجري .. تبعه .. علق أخيرا بعد صمت :

- كنا ننتظر من قوافل الجنوب خبرا سيئا .. فأتانا من حيث لم نتوقع .. الشرق .. هذه أول مرة تسوؤنا أخبار من تلك البقاع البعيدة .

نزلا الدرج .. سارا نحو البوابة الحصينة .. فتح الحرس البوابة .. انحنى الحرس لملك الحصن ومستشاره .

2

خرجا .. استقبلهما ليل الواحة الجاف .. حمل النسيم رائحة طلع النخيل .. بدت من بعيد نيران أحد الحصون المجاورة .. سارا .. وصلا للعين .. فتح لهما حارسها الباب .. نزلا درجتين .. أخفى سقف العين لوحة الليل بنجومه الكثيرة وقمره الوليد التائه .. وقفا في مواجهة ماء العين .. قناديل صغيرة تقبع في جوف كوّات في جدار العين أزالت وحشة المكان وعتمته .

- ما الحل برأيك يا مولاي ؟.

راقب ماء العين المحاصر بجدار صخري متين .. خرير مرور الماء بالقناة الوحيدة بدد صمت المكان .. عزف لحنا أزليا .. يروق له الاستمتاع بسماعه .. وقف فوق القناة تماما .. أنعشته رطوبة دافئة .. جلس على حاشية العين .. رفع طرف ردائه الموسوم في أطرافه بمثلثات متقابلة .. بانت ساقاه .. نزع حذاء الجلد الموسوم بخيوط من حرير أحمر .. استمتع بدفء الماء يغمر قدميه .. أجاب :

- لن نعدم وسيلة .. ككل مرة .... لابد أنه الطمع من جديد ..... هل بلغت أنباء السوء كل الحصون ؟

- نعم سيدي .. أرسلتُ لهم الرسل .

عزفت المياه المنسابة فوق قدميه خريرا راق له :

- إذاً سيأتي كل ملوك الحصون .. هنا يحلو لنا التدبر .. هنا يصفو الذهن للتدبير .

صهيل حصان أفسد متعة السكون .. رد عليه آخر بصهيل أقوى .. تبادلت الخيل صهيلا قصيرا .

3

دخل من الباب .. ألقى تحية المساء :

- توقعتُ أن أجدك هنا .. تعشق التعبد برؤية هذا النبع .. تقضي هنا أوقاتا كثيرة .

أجابه :

- كثيرة وممتعة أيضا .. هل عدت من تمسمودين[1] ؟ .... تحلو لك كثيرا الخلوة هناك.

رد بعد أن جاوره في المجلس :

- أخلو هناك أتأمل .. أتفكر .. أحرس أجداث الأجداد .. أحفظ إرثهم والوصايا .

---

1 - معابد حجرية قديمة توجد خارج اسوار الواحة .

- هل يشاركك أهل حصنك هذا العشق أيضا ؟

- القليل من كبار السن .. تخلى الجميع عن هذه العبادة .. كما تخلى الأسلاف عن تانيت من قبل .

قبل أن يجيب حرك قدميه في الماء الدافيء .. غيّر ذلك من رتابة لحن الماء :

- استبدلوها بالدين الجديد دين بيزنطة كسائر أهل الحصون .

- أرى انهم اختاروا دين روما عن قناعة وطواعية .

رد حامل الوصايا وحارس الأجداث :

- لا أرغب في دين تحمله السيوف وتدفعه الحراب في القلوب .

رد عاشق الماء :

- لم تفرضه علينا روما كما تعلم .

دخل ملكان آخران إلى المكان .. قطع أحدهم حديث الجالسين بقوله :

-يبدو أننا لسنا أول الواصلين .

بدا عليهما المرح .. داعبه رفيقه :

- لسنا آخر القادمين كذلك .

أخذا مكانهما بجوار العين ..

- بقي أن ننتظر ملوك حصن **أمآنج** و **أجار** وكذلك حصن **أماس**[1].

- لن يتأخروا عن الالتحاق بنا ..

4

اكتمل الشمل بوصول الملوك الثلاثة .. تبادلوا التحايا .. استداروا حول مائدة وضعها الخدم .. افتتح المستشار الحديث :

- حملت القوافل أنباء سوء .. يبدو أن حرباً كبيرة ستدور رحاها قريبا .. ربما تكون الصحراء مسرحا داميا لها .. فما تدبيركم وترتيبكم ؟.

سأل ملك حصن أجار :

- سمعتُ عن هؤلاء الأعراب ... أليسوا حملة الدين الجديد ؟

أجاب ملك حصن أماس على التساؤل :

- على العابد في **تمسمودين** أن يجيب .. فهو أدرانا بالأديان .. بل أكثرنا اهتماما بها وعناية بأمرها .

---

[1] - أمانج و اجار و أماس اسماء لمواقع قديمة اقيمت بها قصور على هيئة حصون وقلاع كانت موجودة في غدامس ما قبل الاسلام ولاتزال اماكن تلك القصور تحتفظ بمسمياتها القديمة على الرغم من زوال تلك القصور والحصون

استوى مريد تمسمودين في جلسته .. وضع تلك الصحف الموسومة بخطوط أهل الواحة القدماء على المنضدة :

- أشارت الكتب القديمة إلى قرب ظهور دين جديد .. يسود كل الأرض .. أكدت هذه الكتب أن أتباع هذا الدين سيصلون إلى أقصى حدود الصحراء .

قاطعه صاحب الحصن الأوسط المسمى في لغة الواحة **"أماس"**:

- كان الدين ولا يزال سببا للغزو .. الكل يتحجج بنشر دينه .. بينما لا يأبهون إلا لما يجنونه من وراء هذا الدين .

تكلم المستشار :

- حملت القوافل أنباءً أخرى ... تقول هذه الأنباء أن حملة هذا الدين لا يفرضونه على غيرهم كما جرت العادة .. أضاف من حمل لنا انباء هذا الصراع عن هزائم كبيرة وقعت فيها جيوش بيزنطة رغم عظمة جيوشها وكثر عدتها .

تحدث رئيس الحصن العالي " أمانج " لأول مرة :

- هل سيعلن ملوك هذه الحصون الحرب ؟ .. أم سيقفون على الحياد ؟

أخذ دفة الحديث ورنوغن صاحب الحصن الأكبر :

- دائما كان لنا خيارنا الخاص بنا .. لم نعتد أن نكون طرفا في أي صراع في هذه الصحراء .

ابتسم ملك حصن آجار كعادته :

- سنحسن اختيار مصيرنا كالعادة .. لقد اعتادت هذه الصحراء مثل هذه الحروب .. لن يكون الأمر مختلفا عن سابقيه .

أجابه ورنوغن :

- ورثنا عن أسلافنا أن نكون بمنأى عن هذه الصراعات .

تحمس صاحب حصن أمآنج :

- هل ستصمد بيزنطة أم ستتجرع الخسارة ؟.

كان صاحب المتون القديمة جاهزا للرد على هذا السؤال وكأنه ينتظره :

- لا أحد يصمد طويلا .. دائما هناك منتصر جديد .. هكذا علمتنا الصحراء .. علينا أن نتعامل مع القادمين الجدد كما نتعامل مع الصحراء .

طالبوه بالإفصاح .. لم يكن صاحب المتون وحارس الاجداث هو من أفصح .. بل ورنوغن هو الذي أخذ على عاتقه مشقة الإفصاح :

- تعودنا أن نكون شديدي الحذر مع الصحراء .. فعادة ما تظهر لك عكس ما تبطن .. تخفي الكنوز في جوفها وتبدي لك اكداس من رمال .. تبتلع في جوفها الماء وتغريك وتخدعك بالسراب ..

استعاد المستشار دفة الحديث :

- ما وصلنا من أنباء عنهم شحيحة .. يقال أن القادمين الجدد على هذه الصحراء أيضا أهل صحراء موحشة كصحراءنا .. لابد ان لهم طريقتهم في التعامل مع الصحراء أيضا .. علينا أن نحسن التعامل معهم ... كما نتعامل مع أسرار الصحراء وغرائبها ..

سأل صاحب حصن أماس قائلا :

- هل نحتكم إلى السيف إذا احتكموا له ؟.

لأول مرة يشارك كبير حصن نونو وزعيم ذلك الحصن الحصين القابع في شرق العين :

- السيف لغة من لا يحسن التعامل مع الصحراء .. يخطيء من يظن أنه يسيطر على الصحراء بقوة سيفه .

قطع دخول الخدم حديثه .. وضعوا صحاف التمر أمام أصحاب الحصون .. صبوا في أكواب كبيرة لبنا سائغا .. ارتشف رشفات قبل ان يكمل فكرته قائلا :

- لتسيطر على هذه الصحراء الممتدة لن تحتاج لجيوش وأرتال بل تحتاج لتاجر وبضاعة .. هذا الذي لم تستوعبه تلك الأمم الغابرة .. التاجر الماهر هو من يحسن عرض بضاعته ليجني احسن سعر .. على من يريد السيطرة على الصحراء ان يتعامل معها بهذا الفهم .. عليه ان يسيطر على السوق اولا .. التاجر وحده يملك القدرة على قهر سطوة الصحراء .. عليك أن تحسن التجارة لتفوز بالساحرة التي يخطئ من ينعتها صحراء .

عم صمت .. تناول أصحاب الحصون فيه تمرا وارتشفوا لبنا ..أضاف **ورنوغن** بعد ان تخلص من نواة تمرة :

- صدقت .. أين قرطاجة أين روما أين جرمة ؟ .. تلك الامم كانت يوما عظيمة .. عندما طمعت بامتلاك الصحراء كان ذلك إيذانا بنهايتها .. كل من دخل الصحراء حاملا سيفه خرج منها محمولا في كفنه .. لم تنجُ قرطاجة من مصير الفناء رغم قوة جيشها وحصانة مدنها .. من اعتمد على أكوام الحجارة لحمايته

ستنهار يوما فوق رأسه لتكون سببا في هلاكه .. جرمة كذلك فكرت بنفس الطريقة الخاطئة .. ضاقت عليها أسوار مدينتها .. خرجت منها طمعا في امتلاك الصحراء بلغة السيف لا بعقل التاجر .. فزالت وصارت أثرا وذكرى للعابرين .. لقد ابتلعتها الصحراء .

أضاف مكملا جملته :

- ستبتلعهم الصحراء ولو بعد حين من الزمان .. إنها لا ترحم من ينتهك حرمتها بالسيف .

عم الصمت من جديد .. تخلله صوت تدفق الماء في تلك الساقية .. استمتع **ورنوغن** باللحن الساحر .. جاراه بقية الملوك في الاستمتاع باللحن .. أعادهم صاحب قصر **نونو** :

- أستغرب طمع الجميع في امتلاك هذه البقعة الصغيرة في هذه الصحراء الشاسعة الممتدة !

- هل نسي صاحب حصن **نونو** أنهم يسمون هذه البقعة الصغيرة في هذه الصحراء الممتدة " بوابة الصحراء " .. فهذه البقعة باب لما وراءها .. يجب ولوجه للدخول إلى الصحراء .

- لكنهم يسعون إلى امتلاك الباب وليس ولوجه فحسب .

- هل امتلكوه يوما ؟ ... لا تنسَ أن مفتاح هذا الباب كان ولا يزال بأيدينا .. نفتحه ساعة نشاء لمن نشاء ونغلقه عمن نشاء ساعة لا نشاء .. قد نسمح بالمرور من الباب لكننا بالتأكيد لا نسمح لأحد بانتزاعه وامتلاكه .

استلم الدفة **ورنوغن** من جديد :

- يعتقدون في أهل البوابة ضعفاً وجبناً .. يستسهلون أمر البوابة .. يمنون أنفسهم باغتصابها وامتلاكها .. يحشدون جيوشهم ويجرونها .. ننتظرهم خلف البوابة .. يصلون .. يقفون أمامها .. يلوحون بقوتهم .. يهددون ويتوعدون ويزمجرون .. يجردون سيوفهم البراقة .. تستعصي عليهم البوابة .. يخيب ظنهم في اغتصابها .. ما أن نستل عليهم سلاحنا المتمثل في أكياس الذهب حتى يسيل لعابهم .. يخفت بريق سيوفهم .. يطغي وهج التبر .. يصبحون طوع أناملنا ورهن اشارتنا .. يرتضون أن يكونوا لنا عبيدا بعد أن طمعوا في السيادة .. صاحب المال هو السيد .. رب التجارة هو المسيطر .. مالك التبر هو من يدير اللعبة .

تنهد صاحب المتون وحارس الأجداث :

- إذا كان الصراع عقديا فالغلبة لمن كان متمسكا بعقيدته مقتنعا بها .. أما إذا كان الصراع والقتال نزاعا حول الصحراء فالأمر مختلف .. لا تزال هذه الذاكرة رغم وهنها تحتفظ بتفاصيل هامة عن تلك الحملة قبل مئات السنين .. روما منذ غادرت أرضها وكشرت عن انيابها كان مصيرها الفناء .. ربما أحسنت السيطرة على البحر .. لكن الصحراء شيء آخر .. للصحراء قوانين مختلفة .. نقلت لنا الجدات أخباراً دقيقة عن تلك الحملة .. حفظت ذاكرتهن لنا أخبار ذلك القائد

استفسر ملك أجار :

- هل تعني حملة كورنيليوس بالبوس ؟ .

استرسل في حديثه عن تركة الجدات :

- أرسلت روما للصحراء فرقتها الثالثة .. أشد جيوشها بأسا وقوة .. علها تحقق ما عجز عنه غيرها .. وقف قائدها ذلك أمام هذه البوابة طويلا .. ينتظر الإذن بالدخول .. خط على أعتاب هذه البوابة لقيصره القابع هناك خلف البحار .. أخبره بمروره عبر البوابة بسهولة .. أكد في رسالته أن عبوره البوابة لم يكلفه جندي واحد من فرقته .. عدّ ذلك نصر مبينا في حملته نحو امتلاك وابتلاع الصحراء .. توغل في قلب الصحراء .. انتهك

الحرم بجيوشه الجرارة .. دك جرمة وما جاورها .. دانت له الصحراء بشياعتها .. ما لم تغفره له الصحراء هو تلك البدعة .

استفسر ملك حصن نونو مستغربا :

- البدعة !!

أكمل حارس الذكريات :

- ابتدع بدعة لم تعهدها الصحراء .. رغبة منه في إحكام السيطرة على الصحراء .. غرس في الصحراء قلاعا من حجر .. عبأها بجنوده .. ظنا منه بأنه بهذه الطريقة قد سيطر على الصحراء .. ضحك أصحاب البوابة القدماء من فعله .. انتظروا غضبة الصحراء .. لأنهم يعلمون سر العبور .. منحوه العبور فقط .. بقي السر عند أهل البوابة .. من يمتلك البوابة يجب أن يمتلك السر .

أمّن ملك " **أماس**" :

- من يمتلك البوابة يجب أن يمتلك السر ... لأن روما احتكمت إلى لغة تجهلها الصحراء وترفضها .. فقد لفظتها الصحراء .. وستلفظ كل من يتجاهل لغتها .

أكمل المستشار ما بدأه عاشق تمسمودين وصاحب المتون :

- عبروا البوابة من جديد في طريقهم إلى ديارهم .. عادوا منكسرين .. خائبين .. حائرين .. خاسرين .. تعلموا الدرس بعد فوات الأوان .. رهنوا بقائهم على اسنة جيوشهم .

- منحتنا الصحراء حكمتها القائلة : " لاترهن بقائك ببقاء ما يزول " .

- علموا بعد فوات الأوان أن الجيش يواجه بجيش .. والتاجر يواجه بالمال لا بالسيف .

- اللعبة تكمن في المال .. كم تنفق وكم ستكسب .. التاجر الماهر يكسب دائما .. حتى الخسارة قد تكون في نظر بعض الأغبياء خسارة .. لكن في عرف التجارة ليست خسارة .. التاجر يربح في خسارته معرفة جديدة .. يكسب تجربة هو في حاجة ماسة لها .. ألا ترى أنه لا يخسر أبداً .. أما صاحب السيف فخاسر لا محالة .. في كل معركة يخوضها .. قد يكسب خصمه لكنه يخسر من نفسه .. من إنسانيته .. إذا طال به الأمر يصبح غولا .. لا يشبع من الدماء .. ذات يوم يكون هو الطعم .

القى ملك الحصن الكبير ورنوغن كلمته التي حملتها الجدات وأورثتها للأحفاد :

- لن يملك البوابة أحد .. سيظل مفتاح البوابة بأيدينا .

صهل الحصان من جديد .. انتظر أصحاب الحصون صهيل الحصان الآخر .. هاج النسيم من جهة غرب البوابة .. حمل على متنه هذه المرة أيضا رائحة طلع النخيل .

2013-2012م



الشاعر & الرقص

1

ما أن تطأ قدماك الصغيرتان الحافيتان أرضية الزُّقاق حتى تلتقي بأقرانك .. تتأمَّلهم .. تحفظ أسماءهم .. تحفر في ذاكرتك صورًا لوجوههم الصغيرة .. تميل غريزيًّا لبعضهم .. تنفر من آخرين للسبب ذاته .. لكن يجمعكم منذ ذلك اليوم رباطٌ خفيٌّ .. خصَّته الواحة باسمٍ فريدٍ كفرادة الرباط نفسه .

" الشاغت " لأعضاء الرباط من الجنس الخشن .. أما إذا كان أعضاؤه من الحِسَان فله اسمٌ آخرُ لايقل غرابة عن الشاغة في شيء .. عُرف بينهم باسم " الدقص " ..

2

الشاغت والدقص ..

قيدان مُحْكَمَان .. غِلَّان شديدان .. يربط أولهما ذكور العشيرة الواحدة .. أما الدقص فغِلٌّ يقيِّد إناثها .. اشترط من سَنَّ هذا

الطقس القديم قِدَمَ كلِّ شيءٍ في هذه الواحة أن يكونِ أعضاء الرباط من أبنائها الذين جادت بهم أرحام نسائها في عامٍ واحد .

رباطٌ لا فِكاك منه ولا مهرب ولا مفرَّ ..

تبحثون في أرجاء العشيرة عن مكان مناسبٍ لسِنِّكم .. قد تتخلَّى لكم عنه شاغةٌ سبقتكم إليه وانتقلت هي بدورها إلى مكان آخر منحته لهم شاغة أكبر .. يكون ذلك المكان ملهاكم وملعبكم ومجمعكم ومأواكم ..

تكبر أجسادكم وعقولكم .. تتغير أماكن لهوكم وملاعبكم .. لكن يظل الرباط جامعًا لكم .. تتآمرون معًا ضد شاغاتٍ مماثلةٍ من عشائرَ مجاورةٍ .. قد تضطرُّون لعقد أحلافٍ مع شاغات أخرى لتعزيز مكانتكم ..

3

أضاف أحدهم للطقس القديم شرطًا ..

كانت الضرورات التي وصفها أهل الشرائع بأنها تبيح كل محظور سببًا لتلك الإضافة .. هذه الضرورة تُقَدَّر في وقتها .. ربما تسامحوا في اختراق هذا الطقس في حالتين اثنتين فقط ..

الحالة الأولى التي غضوا الطرف عنها تتعلّق بعجز أرحام النساء في العشيرة أن تجود بعددٍ كافٍ من الذكور لتربطهم في شاغة .. أو عندما تبخل عن منحهم عددًا كافيًا من الإناث لتقيّدهنَّ في دقص واحد ..

أما الحالة الثانية التي تنازلوا فيها وتسامحوا في اختراق ذلك الطقس كانت حين داهمهم مفرّق الجماعات وهادم اللذات واختطف من بينهم بعض أعضاء الشاغة أو الدقص مبكّرًا .. فكان لابد من دمج جماعة أو أكثر في رباط واحد .. حتى لا يُحرم ذكر من شرف الارتباط بشاغة أو تُستثنى أنثى من الدخول في حرم دقص ..

ما تتهيأ الشاغة او الدقص لصيام رمضانها الأول حتى تسارع لتتخذ لها اسما تعرف به بين باقي الشاغات والدقوص في نفس الحي .. كانت هذه التسمية مهمة وضرورية ليسهل التعرف والوصول للشخص او الشاغة المطلوب منها اداء شيء ما .

من الشاغات ما حمل اسم شاغة فوران وهي مرادف لأسم سيد الغابة الأسد مثلا أو اسم كارورن التي تعني ترجمتها بلسان يعرب جمعٌ للجمال أو البهاء .. كما قد يحمل مؤنث التسمية دقص

آخر في نفس الحي فتصبح شاغة تكارورين على سبيل المثال اسما ..

4

لم تنقل الروايات ما إذا كان هناك شاغة أو دقص يتكون أعضاؤه من عشائر مختلفة إلا في حالات نادرة يصعب الآن حصرها أو يستحيل ..

نقلت تلك الروايات - على الرغم من ندرتها - أن ذلك حدث في صفوف النساء ، فهُنَّ أقدر الخلق على اختراق الطقوس وإيجاد المبرّرات اللازمة .. كما أنهن الأقدر على احتواء الآخرين وتقبّلهم من الذكور .

5

عادةً ما يفرض أحدهم سلطانه على باقي أهل الرباط .. يأتمرون بأمره ويحترمون حضوره ، بل لا يقطعون أمرًا دونه .. في البداية قد يكون سبب ذلك بسطة في الجسم .. لكن بالتأكيد بعد ذلك سيكون السبب بسطة في العقل .

6

ذات حقبة يصعب تحديدها أضاف أحدهم طقسًا لاقى رضًى وإعجابًا على عكس ما توقَّع .. فلم يُقابَلْ بمعارضة تُذكر كما نقلت الروايات .. كان فحوى إضافته أن يجتمع أهل كل دقص وأعضاء كل شاغة في الليالي المعلومة ..

لم يكن هذا كل ما أضافه ، بل زاد عليه أن يكون لقاؤهم ليلًا..

أما الفقرة الثالثة من هذه الإضافة فقضت بأن يكون اجتماعهم مناسبةً للتنعُّم بالأكل والشرب واللهو .. كل شاغة على طريقتها .. وكل دقص على هواه ..

ختم إضافته بشرط أن يكون لكل شاغة ودقص مكان منفصل عن غيرها .. إضافة صغيرة كانت مهمة في تحديد الأيام المعلومة .. ففي كل حقبة أضاف أهل تلك الحقبة يومًا حسب الضرورة والحاجة .. فكانت أيام المواسم الدينية أيامًا معلومة يتحقَّق فيها الاجتماع والاستمتاع معًا .. كان لشهر رمضان الحظوة في هذا الطقس .. تمثَّل في اجتماع الشاغات والدقوص كل أربع ليال ..

7

كان على مريدي هذه الإضافة والمتحمّسين لها أن يطلقوا عليها اسمًا يُعرف بها كسائر موجودات ومفعولات هذه الواحة التي لا تخلو من اسمٍ أو صفةٍ تُعرف بها.. فسمَّوا هذه المناسبة باسم " افزو" .. كانت نساء الواحة وفتياتها أكثر المستفيدين والمحافظين على إقامة شعائره بدقة .

لا نعلم كيف استقبل الأوائل هذه الإضافة المهمَّة للطقس .. لكننا لمسنا تأثيرها على الأحفاد .. تفنَّن الجميع في الاستمتاع بهذه الإضافة .. حدثت منافسات بينهم أيضًا .. أما المناكفات فكانت فاكهة هذا الطقس .. لا يخلو طقس منها ، ولا يحلو ما لم يُبِحْها .. إضافةٌ أحدثت تغييرًا مهمًّا في الرباط .. زادت من متانته وصلابته عند المترابطين به وبينهم .

8

بشِقَّيْهِ المتنافسين الشاغت والدقص تولَّى الرِّباط الإشراف على أهمِّ مرحلة من مراحل حياة أهل الرباطين .. انقسم الناس في أمر هذا التدخُّل إلى فريقين فقط .. في هذا الأمر لم يكن ثمَّة مكانٌ

للفريق الذي يحلو له أن يتوسَّط أي أمرين يحدث فيهما جدال .. لأول مرة أيضا - ربما- يحدث هذا الانشطار في أمر ما ..

وصف أحد شطري الخلاف هذا التدخُّل بالسافر .. ونعته الشطر الآخر بالمحمود .. تحجَّج الشَّطر الأول بأنه تدخُّل في أمرٍ خاصٍّ وحسَّاس .. أما الشطر الثاني فقد علَّل ذلك بأن شاغت الفتى أو دقص الفتاة أحقُّ الخلق بمشاطرة صاحب المناسبة مناسبته .. بل أهم مناسباته على الإطلاق .

9

ما أن يقرِّر أحد أعضاء شاغةٍ ما الزواج حتى تفزع له شاغته .. لا لتعينه فقط على تجديد البيت وإصلاح ما يلزمه الإصلاح ، وترميم ما يكفيه الترميم ، بل تتدخل وتشارك في أدق التفاصيل وأكبرها ..

في بعض الأحيان يبنون البيت كاملًا من أساساته إلى محرابه .. وفي أحيان أخرى تجرى عليه بعض الإصلاحات اللازمة ، فيعيد الطين إليه هيبته والجير الأبيض والجبس بهاءه .. يعود لوحة ناصعة البياض ناعمة الملمس .

حين يقترب موعد الزفاف يتخلّون عنه – البيت - طواعية ويسلّمونه للعروس لتكمل الشق الثاني من إعداد البيت ..

هنا تحدث أكبر عملية تحوّل يشهدها البيت ..

تتسلّم العروس ودقصها البيت .. في أيام قلائل يتحول إلى تحفة فنية .. تختفي الجدران البيضاء الملساء خلف صورٍ من الإبداع .. ويتوشّح أغلبها بالحُمرة في لوحات بديعة تتخلّلها باقي الألوان في مواقع قليلة تضفي عليها جمالًا يبهر العين ويأخذ الألباب ..

تكتسي جدران البيت بأحجامٍ مختلفةٍ من المرايا ، لكلٍّ منها موضعه المناسب على الجدار.. الأواني النحاسية المصقولة بعناية فائقة تحيط المرايا الكبيرة بطوق بديع ..

للأطباق المصنوعة من سعف النخيل موضعٌ أيضًا ، فقد حُجز لها مكان على الجدران يليق بزخارفها القديمة.. تفترش الأكلمة أرضيته .. وسائد ونمارق مختلفة تحيط بصدر البيت .. تحسن تلك الأنامل وضع كل شيء في مكانه بلمسة فنية بارعة بديعة .

10

تبدأ مراسم القِران .. يصبح الفتى سلطانًا لاينقصه إلا التاج .. يتخذ من عضوين من شاغته وزيرين مفوَّضين كاملي الصلاحية .. يديران العرس بمهارة .. يتنافس باقي أعضاء الرباط في خدمته لإظهار العرس بمظهر يليق بشاغتهم يتباهون به أمام الشاغات الأخرى .. تُسَنُّ العقوبات اللازمة للمقصّرين والمخالفين في جوٍّ بهيج ..

يرقصان معه رقصة العريس .. في أهم طقس من طقوس العرس وأهم حدث تعيشه الشاغة وأعضاؤها .

11

في مكان آخر من الواحة .. دقص العروس يحيطون بها .. يُدِرْنَ العرس بمهارة فائقة .. تتنافس الدقوص بمختلف أعمارها في خدمة العروس والعرس .. تشتعل منافسات الرقص ومباريات الغناء ومقابل المرح بينهن .

أخيرًا ، تزفها دقصها إلى خدرها في كوبت بيتها وتَسدل عليها الأستار ..

12

تزفه الشاغة إلى بيته .. يبهره ما صار إليه بيته من جمال أخّاذ .. تهاجمه رائحة التافندا .. تُرفع الأستار .. يلتقيان لأول مرة وجهًا لوجه .. تبدأ مراسم حياة جديدة وروابط أُخَر تضاف للعضوين .

تنفِّر زوجك من شاغتك كما تنفِّر أنت بدورك من دقصها .. فكل منكما يشده ذلك الرباط الخفي إلى رفاقه ..

تستمر الحياة .. تسير في دورتها المعتادة .. حلوة وجميلة ..

13

ككل شيء لابد من نهاية .. تصل رحلتك لنهايتها .. تجف الأقلام وتُرفع الصحف .

اتفق الرباطان الشاغة والدقص في معظم تفاصيل الحياة دقيقها وعظيمها .. تفرَّدت الشاغة بشيء حُرم منه الدقص .

فشاغتك هي من تحملك على الأكتاف إلى مثواك الأخير .. تضعك في قبرك وتهيل عليك التراب وتبكي عليك بحرقة وأسًى .

هذا إذا لم تكن أنت آخر عضوٍ حيٍّ فيها .

14

أحدهم ابتكر حلا لمن تخلت عنه شاغته أو دقصه فرحلت وتركته يعاني الوحدة فوق الآض بعد ان جمعت بطن الأرض باقي اعضاء الشاغة أو الدقص ..

تمثل هذا الأمر بتوريث اسم الشاغة لشاغة أخرى تكون قد فُرض عليها الصيام في ذلك العام .. ليصبح عضوا رسميا في تلك الشاغة وأحد اعضاءها له ما لهم وعليه ما عليهم .. على الرغم مما بينهما من سنوات قد تكون أطول مما تتخيل ..

إنها الطقوس واحكامها .

راس لانوف 2014م

تشکیل وزارت

1

إنه الحدث الأبرز هذا الصيف في العشيرة كلها .. لا حديث في جميع المجالس إلا عن عرسه .. العشيرة برمتها تنتظر مناسبة ما لتشتعل احتفالا وفرحا .. أيام قليلة وتنطلق الزغاريد من أفواه النساء من فوق سطح بيتهم لتنتشر من هناك على أرجاء الواحة بأسرها .

2

انتهت الشاغة من كافة التجهيزات .. بيت العريس صار جاهزا لاستقبال العروسين .. بقي شيء واحد لم يفصح عنه العريس وكل الشاغة في انتظاره .. إنها تشكيلته الحكومية التي ستقود الشاغة لتسيير عرسه.

صرح بأنه سيعلنها يوم الجمعة في أول أيام العرس .. استغربت الشاغة ذلك .. لكنها عزت الأمر إلى أن لكل عريس

شطحاته .. فالتشكيلة لن ولم تختلف عن سابقاتها في أعراس الشاغة .. الشيء الوحيد الذي سيتبدل هو السلطان فقط .

3

اجتمع بهم على حدى .. ثلاثتهم فقط دوناً عن سائر الشاغة .. طالبهم بالحضور فرادى وفي سرية تامة للمكان الذي حدده لهذا اللقاء .. كشف لهم عن نواياه .. أخبرهم عن نيته المبيتة لاختيار أحدهم وزيراً كامل الصلاحيات بينما سيمنح آخر منصب القاضي وأشار لثالثهم بأنه سيتولى منصب الجلاد .

4

أخرستهم المفاجأة .. كان أول الناطقين الوزير المرتقب :

- لن ترضى الشاغة بهذا الاختيار .
- أنا السلطان وأنا من يقرر .

انبرى القاضي قائلا :

- الأمر ليس بهذه السهولة .. لقد اعتادت الشاغة على أن يكون وزيرها فلانا وقاضيها علانا وجلادها فلتانا .

- أنا العريس وأنا من يقرر .

كان على الجلاد أن يدلي بدلوه :

- هل حسبت حساب العواقب ؟ .

- لم يحسبوا حساباً لنا قط .. دائما كنا الأضعف ..

تدخل الوزير المرتقب :

- إنها مجرد طقوس .. الأمر لا يعدو كونه مزاحا .

- لنمزح نحن أيضا وليعتبروه مجرد طقس عابر ..

ختم النقاش بقوله :

- أنا السلطان وأنا من يقرر .

خيم الصمت على حاشيته المرتقبة .. قرأ في عيونهم رغبة مشوبة بخوف وقلق .

5

في مكان آخر تجمعت باقي الشاغة .. أثار انتباههم غياب السلطان العريس وثلاثة أعضاء من الشاغة .. كان غيابهم في أول الأمر عاديا .. لكنه بعد أن طال أثار شكوكهم .. انتظروا

ظهور العريس طويلا تلك الليلة .. غادروا دون أن يتوصلوا لمكانه ولا لسبب غيابه .

6

صباح الجمعة انطلقت الزغاريد مع أول شعاع للشمس .. في وسط ساحة الحي اجتمعت الشاغة .. لم تكن وحدها .. كان في الساحة شباب شاغات أكبر من شاغتهم وآخرين أصغر من شاغتهم .. كانوا ينتظرون بشغف الإعلان الرسمي عن حكومة السلطان .. لتبدأ مراسم العرس .

7

وصل السلطان .. يتقدمه وزيره المرتقب وعن يمينه قاضيه وجلاده عن يساره .. توسطوا ساحة الحي .. لم يكن بحاجة لإعلان تشكيلته .. فقد فهم جميع الحاضرين الرسالة .. تهامست الشاغة فيما بينها .. اعتبر فلانا أن هذا تعديا على ما اعتادت عليه شاغتهم .. أما قاضي قضاة الشاغة فتمتم بكلام مبهم مفاده أن هذا أمر دبر بليل .. آثر الجلاد القديم فلتانا الصمت فقد شعر بأن رياح التغيير آتية لا محالة فأحنى ظهره لتفاديها بدل الوقوف لمعاندتها.

8

اعترض الوزير الدائم على استبعاده من منصب شغله دائما .. شعر بالإهانة .. كان احتجاجه صارخا .

تشجع القاضي القديم ليعتبر ذلك مؤامرة مدبرة من شاغات أخرى ترغب في زعزعة شاغتهم وإثارة الشحناء بين أعضاءها .

تدخل أعضاء الشاغة في محاولة لثني السلطان عن قراره ..

أصر السلطان على خيارته .. جلس في المصطبة المعد له دون أن يأبه لاحتجاجات الشاغة ..

حاولوا بعدها فرض بعد التعديلات فقط .. لكنهم اصطدموا بإصراره ..

تدخل بعض أفراد شاغات أخرى أكبر منهم للوصول لحل يرضي جميع الأطراف .

أنهى النقاش بأن أمر القاضي باتخاذ كل ما يلزم ضد من يحاول الشغب أو إثارة الفوضى في العرس .

9

لم يتوقف الوزير السابق عن محاولة استعادة مكانته في الشاغة .. حاول تحريض أعضاء الشاغة واستمالتهم لصالحه .. ترددت الشاغة في الأمر .. انقسمت إلى ثلاث فرق :

رفض بعضهم صراحة القرارات الجديدة .. بعضهم رفض قرارات السلطان تلميحا .. أما الباقي فكان مع السلطان على طول الخط .

كان على القاضي أن يبدو حازما .. استمد حزمه من صمود السلطان وإصراره على موقفه .

أصدر القاضي أول أحكامه ليعيد الشاغة إلى جادة الطريق .. أمر بتعليق الوزير السابق الفلقة .. أضاف القاضي بشيء من الحزم أن على الشاغة مساعدة الجلاد في تنفيذ الحكم فورا .. أضاف أنه لن يتم استبدال العقوبة كما جرت العادات .. أصدر قرارا آخر وجهه لباقي أعضاء الشاغة مفاده :

- أن كل من يعترض على الحكم الحالي أو يحاول التأثير على أحكامه القادمة سينال ضعف ما قرره على الوزير الراغب في استرجاع وزارته ..

ابتسم السلطان ابتسامة ملؤها الرضا .

10

لأول مرة في تاريخ الشاغة الطويل يقف هذا الموقف .. كانت له قدرة على قيادتها وفرض رأيه عليها منذ سنوات الطفولة .. لكنه يقف وحيدا الآن لتلقي العقاب الذي كان يفرضه على باقي الشاغة وتتلقاه بمرح .. لكنه لم يعتبر الأمر مجرد طقوس ومزاح ومرح .. بل اعتبر ان المقصود من ذلك شيء آخر ..

أذعن لحكم القاضي طوعا لتجنيب الشاغة الانقسام والخصام .. سلم نفسه للجلاد الذي لم يكن رحيما كعادة الجلادين .

11

سارت طقوس العرس سيرها المعتاد .. فرحت الشاغة ومرحت ومزحت .. اختفاء بلغة العريس ذات ليلة عكر صفو الشاغة .. لم يتفطن للسارق أحد من أفراد الشاغة المكلفين بتأمين

العريس وكل لوازمه .. أمر القاضي أفراد الشاغة أن لا يكتموا الأمر وأن يبحثوا في كل مكان يمكن أن تخبأ فيه بدون أن يلفتوا انتباه الآخرين .. نجحوا في إخفاء ارتباكهم بصعوبة .. نجحوا كذلك بالحصول على أحدى زوجي البلغة .. اما توأمها فلا أثر لها .. قارب الليل على المغادرة ولا أثر لفردة البلغة اليمنى ..

يبدو أن الأمر تجاوز مرحلة المزاح ودخل مرحلة الفضيحة ..

جمع السلطان حكومته لاجتماع عاجل وسري لتباحث الأمر .

12

في بيت العريس كان الاجتماع .. صاح في وزيره :

- إنها الفضيحة .. لم يحدث مثل هذا الاختراق من قبل في شاغتنا .
- حدث في شاغات أخرى .
- أنا أتحدث عن شاغتنا هذه .. لا يعنيني الآخرين الآن في شيء .. ما العمل ؟ ..

- هذه الفضيحة لا تمسك وحدك بل الشاغة بأسرها .. لو فشلنا في العثور على البلغة المسروقة قبل ليلة الدخلة ستلوك الأجيال سيرتنا بالسوء .

- أريد حلا أيها الوزير .. لم يبق على الدخلة سوى ليلة .. هل تعلم معنى اختفاء شيء من حاجيات السلطان الشخصية ؟.

- أن من سرقها ينوي أن يرسلها للعروس لينال الجائزة .

- هل تعلم ما معنى أن ينجح أحد ما في نيل الجائزة ؟

خيم صمت رهيب على الحكومة المرتبكة .. أردف السلطان :

- هذا يعني شيء واحد .. أن عريسك لا يعتمد عليه .. هذا ما يريدون إيصاله للعروس .. كيف يمكن أن يعيش رجل مع أمراة تنظر إليه بهذا المنظار ؟ .. إنها الفضيحة الكبرى .

هذه المرة تكلم القاضي بهدوئه المعتاد وحزمه الذي منحته له مكانته الجديدة في الشاغة :

- لنستبدل البلغة ببلغة أخرى .. هذا هو الحل .

13

سكت السلطان على مضض .. لم يعجبه الحل .. لكنه لا يملك سواه .. كان يعلم أن هذا حل تلفيقي وأن من أخذ البلغة وحده يعلم

أن هذه البلغة ليست بلغته .. كما أنه لا يضمن كتمان الأمر إلى الأبد .. فالقلوب تتقلب وتتغير وتتبدل مع الأيام .. كان ذهنه يقلب الأمر باحثا عن هوية ذلك العابث الذي اخترق حرسه وسرق بلغته .. كانت شكوكه تحوم حول شخص بعينه .

14

تدبر الوزير أمر البلغة .. أعلن أمام الشاغة أنهم وجدوها وأن الأمر قد تمت تسويته .. كانت عيون الشاغة تُكذّب ما يقوله الوزير ..

ليلة الحناء مرت بسلام .. رقص العريس رفقة وزيره وقاضيه في أخر السهرة كما جرت العادة .. صحيح أنهم رقصوا رقصا بديعا يليق بشاغتهم ..لكن السلطان لم يكن على ما يرام .. كان الاضطراب واضحا على محياه ..

15

مساء الخميس .. كانت الاستعدادات جارية على قدم وساق .. وزع الوزير المهام على أعضاء الشاغة .. تفرقوا كل حسب مهمته .. اختلى السلطان بحكومته .. كل ما ينتظرونه هو أذان

صلاة العشاء ليتوجه العريس إلى المسجد ومن بعدها إلى بيته ليلتقي العروس .. وقف السلطان يتفقد ثيابه ويتأملها ..

برنوسه الأحمر الموشى بخيوط ذهبية مطوي بعناية في الوسط.

عن يمينه برنوسه الحريري الناصع البياض ..

مديته في غمدها الفضي الموشى برسوم قديمة في الطرف ..

بلغته البديلة عن تلك الضائعة على الطرف الآخر ..

كل شيء كان على ما يرام لولا اختفاء فردة من بلغته الأصلية ..

كان يحاول أن يقنع نفسه بصحة تدبير القاضي باستبدال البلغة بأخرى شبيهة لها ..

قطع تأمله طرق خفيف على الباب .. أسرع الجلاد ليتبين هوية الطارق .

كان الوزير السابق يطلب الإذن بمقابلة السلطان .

16

- كنت أعلم ان الشكوك ستحوم حولي إذا ما وقع شيء ما في عرسك ..

رد السلطان :

- لكننا لم نشك بك ولا بأحدٍ من أفراد الشاغة .
- أشكركم على ثقتكم ..

لا أنكر أنه حز في نفسي كثيرا تكليف غيري بمهمة الوزير .. كما أن الفلقة التي حَكَمَ بها القاضي عليّ كانت قاسية على نفسي .. خصوصا أن الجلاد قام بواجبه على أكمل وجهه ههههه ههههه .

- هذه هي شروط اللعبة .
- أعلم ... لذلك قررت إكمال اللعب .
- هذا ما يُفترض أن يكون .. فالطقوس جُعلت للتسلية والمرح وليس لشيء آخر .
- في البداية حاولت التأثير على أفراد من الشاغة لنعلن العصيان .. لم يلق اقتراحي قبولا من كثير ممن توقعت منهم مساندتي .. قالوا : عليك تقبل الأمر فهذا يحط من قدر السلطان .
- صدقوا ... العصيان يحط من قدر السلطان .

- إنه لا يحط من قدر السلطان فحسب بل من الشاغة كلها .. سيكون ذلك سابقة تتحدث عنها الأجيال .. انشطار الشاغة إلى فريقين ليس في صالح الشاغة كما أنه قد يعود بالسوء على العشيرة وربما الواحة بعدها .. آثرتُ التسليم لقرار السلطان والنزول عند رغبته فهو في النهاية السلطان .

شعر السلطان أن الحديث سيطول .. جلس واتكأ على حائط صدر البيت .. أشار إلى الوزير السابق بالجلوس ولباقي الحاشية كذلك :

- كنتُ طيلة الوقت أراقبُ سير العرس .. كنتُ أخشى أن يحدث شيء ما يُسيء للعرس أو يعكر صفوه فينسب لي ذلك .. سرقة البلغة اعتبرته طعنة لي قبل أن تكون للسلطان ثم للشاغة.

تساءل القاضي في حيرة :

- طعنة لك قبل أن تكون للسلطان ثم للشاغة ؟ .. أفصح .

- حسناً .. صحيح أنه لا أحد أشار للأمر ولا لمح له .. لكني كنتُ أرى ذلك في العيون وأقرأه واضحا على صفحات الوجوه .. قد لا تبوح به الألسن اليوم فهل سيدوم سكوتها هذا طويلا .. في البداية توقعت أن يكون الأمر مزاحا من أحد أعضاء شاغتنا لإحراج السلطان أو مساومته كما جرت العادة .. أو ربما لإلصاق

التهمة بي على سبيل المزاح على الأقل لأنال مزيدا من العقاب ..
عندما وجدنا أحد زوجي البلغة علمت أن الأمر لم يعد مزحة بل تعداه إلى الفضيحة .

- كانت تلك رسالة واضحة من السارق العابث .

- كان عليّ كما على جميع أعضاء الشاغة التحري عن البلغة والدقة في البحث والإسراع في الأمر قبل حلول ليلة الدخلة .

تدخل الوزير الجديد موضحاً :

- توقعنا أن من سرقها ينوي المساومة بها حتى لا تصل إلى يد العروس .. لكننا وجدناها أخيرا وحللنا المشكلة .

ابتسم الوزير السابق لغريمه الحالي ساخراً .. قرأ السلطان التشكيك في عيني الوزير السابق كما بدا الارتباك واضحا على حاشيته .

- ها هو مؤذن المسجد على وشك أن يطلق أذانه .

- لم أتوقف عن البحث عن صاحب الدعابة السمجة .. لأن الأمر كما أسلفتُ يتعلق بي قبل الآخرين .. فالشاغة تعلم أن هناك بلغة مسروقة ولا تعلم هوية السارق وسوف تتساءل ذات يوم عن كيفية تسوية الأمر ولو ببلغة مزيفة كهذه .

خيم الصمت على السلطان وحاشيته .. أكمل الوزير :

- فكرت طويلا .. راجعت في ذهني أحداث ليلة السرقة كاملة .. حصرتُ شكي في عدد محدود من الأشخاص ..

- كيف تسنى لك ذلك ؟

- اتخذت زاوية تتيح لي مراقبة كل ما يجري في مكان تواجد السلطان .. كان الجميع مشغولا باللهو والمزاح .. رصدتُ كل شيء من موقعي .. كان من السهل حصر شكوكي في عدد قليل .. احتجت ليوم واحد فقط للوصول إلى المازح العابث ..

أخرج من بين طيات ثيابه فردة البلغة المفقودة .. وضعها إلى جانب البرنوس الأحمر الموشى بخيوط الذهب .. بهت السلطان وحاشيته .. لم يستطع إخفاء فرحته بالعثور على فردة بلغته .. جنبه الوزير السابق فضيحة ستلوكها أجيال كثيرة ..

وقف السلطان فوقفت الحاشية بدورها .. سارع باحتضان وزير الشاغة السابق .. سالت دموع الفرح من عينيهما .. ارتفع أذان العشاء من مسجد الحي .

قبل الدخلة بدقائق أعلن السلطان تعديلا مهما في وزارته .

لما طلع فضيد

كلوا واشربوا وقروا عينا

1

رغم كثافة الجريد وتلاصق النخيل .. تتسلل اشعة الشمس إلى الحقل المخضر .. تجد لها دائما منفذا .. يتيح لها ان تضفي لونا مميزا على خضرة المكان .

2

ممتشقة القوام .. شديدة السمرة .. صلبة العود .. ارتفع جسدها الفاتن إلى عنان السماء بثقة .. شامخة برأسها المتوج بجريد كثيف .. استقر بها المقام .. في ذلك الركن الظليل المميز من الحقل .

3

وُلدنا من رحمها تباعا .. صرنا خمس أخوات .. احطنا بها .. احتضنتنا إلى جذعها .. تتسرب إلينا أسباب الحياة من خلال جسدها الانيق .. تسري في عروقنا دماء الأمل .. تزودنا بروح العطاء .. تبث فينا حب التسامح .

سارت الحياة في بساطة ودعة .. نتمايل مع نسمات المساء .. تلاعبنا سيقان البرسيم المحيطة بنا .. تتسلقنا احيانا خيوط النجم المشاغبة .. علمتنا الأم بهدوء كيف نستمتع بجمال الكون المخضر .. بل كيف نكون عنوانا لهذا الجمال .

4

كان الجو بديعا .. تطرب اسماعنا زقزقة عصافير .. تحط فوق رأس أمنا .. تستريح قليلا في لهوها .. وفي رحلة بحثها عن رزقها .. تمكنها امنا من ثمارها البادئة في النضج .. تلتقط ما لذ لها وطاب .. لم تكن الأمور كلها بهذه البساطة .

5

ذات ربيع .. سرت إرتعاشة في بدن الأم .. تسلل إلى قلوبنا الضعيفة خوف من مجهول .. شعرنا بقلقها .. همست لنا في محاولة يائسة لطمأنتنا .. لم نعرف سببا لكل ذلك .. لم يكن هناك جديد يبرر ذلك .. غير فلاح تبدو على وجه ملامح الجد .. يحيط خصره النحيل بحزامٍ قاسٍ .. يحمل في يمناه فأسا وفي أخراه

منجلا .. لم أتبين سببا لهذا الرعب الذي دب في الأم وتسرب إلينا تباعا .

6

لم تطل فترة جهلنا .. فقد افصح الفلاح عن مأربه .. فقد شهر في وجهنا منجله .. جلس القرفصاء .. ازال بفأسه ترابا من محيطنا .. امسك بإحدى الأخوات .. من رقبتها .. أنّت وتوجعت .. حاولت التنصل من قبضته .. ارتعش جسد الام ثانية .. كنت هذه المرة اقوى .. شجعتها الأم لتتحمل وتتجلد وان تقبل بمصيرها .. لم تكن كلمات الام كافية لبث الطمأنينة في قلوبنا الصغيرة .. فصل المنجل آخر حبل يربطها بجسد الأم .. انفصلت عنا كذلك .. نظرت إلينا في حزن .. ودعتها الأم وهي تكرر على مسامعها وصيتها بصوت مرتعش وحزين :

- **" خلقنا لنمنح رطبا جنيا وننشر ظلا ظليلا ونطعم زادا هنيئا "**

7

استمر في عمله بكل شراسة وجدية وفي صمت .. انتزع الاخوات واحدة واحدة .. رصهن متجاورات .. ارسلت لهن الأم

ظلها .. حان دوري .. كنت الاضعف قوة والأصغر بدنا .. احكم قبضته عليّ .. انقطعت انفاسي .. لم يبالي بأشواكي الخضراء الطرية .. ازالهن بضربة منجل .. نزفت .. تألمت .. قطع ما يصلني بالأم من اوصال أيضا .. فطمني بضربة منجل قطع بها أخر شريان يصلني بالأم .. وصل إلى سمعي وصية الأم بصوتها المرتعش :

- تجلدي واصبري .

8

حملنا على ظهره كرها على كره .. سار بنا .. تلاشى صوت الأم .. لكن صدى كلماتها لا يزال في اسماعنا .. على بعد امتار حط بنا .. استقر بنا المقام في حُفر .. تبعد عن بعضها البعض خطوات .. كنت الاكثر حظا والأقرب إلى مستقر الأم الرؤوم .. عمّنا حزن شديدة وكآبة .. عافت نفسي الزاد رغم كميات السماد الكثيرة التي اغدقها عليّ في مستقري الجديد .. وسيل الماء الغزير العذب الذي سقانيه .

9

كانت ليلة صعبة تلك التي قضيتها بعيدا عن الجسد الرؤوم .. عانيت لأول مرة الغربة والفراق .. نزفتُ دمعا ودما .. لم يوقفني عن ذلك طلوع النهار .. لأول مرة لم اطرب لزقزقة العصافير وهي تستقبل يومها .. انتصف النهار واشتدت شمسه .. لأول مرة اتعرض لضرباتها .. لأول مرة اتفقد شقيقاتي ولا اجدهن .. فقدت قرب الام وكذلك ظلها .. هون علي من شدة الشمس سور محكم من جريد يابس احاطني به الفلاح .. احسست بالوحدة والفراغ في سجني الجديد .. حاولت التواصل مع اقرب الشقيقات .. كان الفشل نصيبي من المحاولة .. حاولت الاستنجاد بالأم .. لم يكن نصيبي من المحاولة خير من سابقتها .. لكن اصداء وصيت الأم لا يزال عالقا في وجداني .. رددت آخر الوصايا :

- تجلدي واصبري .

10

انتهى النهار تبعه ليل .. تكرر تتابعهما وتلاحقهما .. لم يحدث جديد .. غير ماء يزودنا به الفلاح كل يوم .. اعافه ولا أستسيغه .. أحسستُ بضعف شديد وهزال .. لم يكن حال الشقيقات خير من

حالي .. بدت علامات الشحوب واضحة على ملامحهن .. لم يكن بنا جلد على هذا الفراق ولا هذه الغربة ..

حاولت التواصل مع الشقيقات .. مددت جذوري الصغيرة نحو اقربهن .. لم تكن قوتي كافية لاختراق التراب الفاصل بيننا .. اكتفيت بمواساتهن والدعاء لهن من مكاني .

11

مرت أيام أخرى .. كانت عصيبة .. ساءت فيها حال الشقيقات .. رغم الماء العذب المسال والسماد الكثير المتاح .. تدهورت حالتهن .. شحبن .. لم يحجب سور الجريد الواقي من عبث الرياح ولهيب الشمس عني سوء حالتهن .. اختفى الاخضرار تدريجيا من على محياهن .. حل محله اصفرار مقيت .. يوحي بفكرة أكثر مقتا .. فكرة النهاية .

12

تسلل الموت إليهن تباعا .. استسلمن له .. احسستُ به يسير نحوي حثيثا .. حاولت التشبث بالحياة .. بدأ الاصفرار يغزو بدني .. فزعت .

حفرت بجذوري المنهكة الضعيفة التراب .. اخترت ان اخترق الارض للوصول للام .. اصطدمت بتربة شديدة الصلابة .. اشتدت حالتي سوءا مع الوقت .. رغم محاولات الفلاح اليومي لنجدتي وشقيقاتي بالماء والدعاء .. مرت ايام كثيرا ربما تجاوزت الثلاثين يوما واقتربت من الاربعين .. انهكني التعب والهزال واليأس .. استسلمت لقدري .. فجأة حدث شيء .. جفلت وانتبهت من ذهولي .

13

شعرتُ بشيء ما يدبِ تحتي .. فزعت .. تكومت جذوري متأهبة .. محاولة الدفاع عن اخر رمق احتفظ به .. تقدمَ ذلك الشيء .. لم تفلح الجذور الواهنة في ابعاده .. بل التحمت به .. شعرتُ براحة .. استغربتُ لهذا الشعور في مثل حالتي .. دب فيّ نشاط افتقدته من اسابيع .. استغربت له .. بحثت عن سببه .. اكتشفت أن الأم هي التي مدت لي حبل الحياة الذي انقطع من اسابيع .. فرحت .. دب في الحماس .. تمسكت بجذر الحياة .. امتص ما فيه من اسباب الحياة .

14

سرت الحياة في عروقي .. تحسنت صحتي .. نجحت في الخروج من حالة البؤس واليأس .. شكرتُ الأم على صنيعها .. غزاني الاخضرار .. امتلأ جسمي من جديد .. تأسفت لفقداني الشقيقات بهذه السرعة .

15

تشبثت بالحياة أكثر .. ألفت وضعي الجديد .. عودي قوي واستطال .. زحفت جذور .. ضربت في الأرض .. ازحتُ عني سور الجريد .. خرجتُ إلى الدنيا الفسيحة .. رأيتها بنفس جديدة وعيون جديدة وأمل جديدة .. ازال الفلاح بقايا شقيقاتي بعد ان يأس من امرهن .. غرس مكانهن أخريات .. بدأن رحلتهن أيضا .. شددتُ من أزرهن .. لعل حظهن يكون أحسن من حظ شقيقاتي.

16

مرت أشهر .. وأنا انمو واكبر .. صرت اعتمد على نفسي .. بدأت العصافير تزورني .. تحط على رأسي أيضا .. تتنقل لي

وصايا الأم الرؤوم .. تشد من أزري .. تحثني على الثبات .. اجتهدت وقاومت وارتفعت أيضا .. في كل يوم ازداد ألقا .. بعد كل اسبوع اكتسب قوة .

من خلال تشجيع الام الرؤوم وابتسامتها .. لم يكن هذا كل شيء..

مرت اشهر عديدة .. بدأت تظهر علي ملامح النضج .. صار لي قوام فارع .. امتلأ رأسي بجريد نافرٌ أيضا .. صرتُ جميلة .. شعرت بذلك نمى لي أيضا عرجونان جميلان صغيران .. اضافا جمالا إلى شكلي .. شعرت بغيرة جارتي الصغيرات على ما آل إليه شكلي الجميل .. أرسلت الأم لي تهنئتها مع عصفور حط فوق رأسي .. كان ردي ابتسامة خجل .

17

مرت اشهر الصيف .. كبر العرجونان .. أبلحا وأتمرا .. كان منظرهما وهما يتدليان جميلا ومغريا .. أذنتُ للطيور بتذوق نتاجهما .. غمرتني سعادة كبيرة حين نال اعجبها طعم تمري .. قطعهما الفلاح بعد ان اكتمل نضجهما .. سررتُ لذلك كثيرا .

18

مر العام سريعا .. تضاعف عدد عراجيني .. تضاعف معه بهائي .. تضاعف معه أيضا زواري من الطيور .. كان هذا داعيا لزيادة اهتمام الفلاح بي أيضا .. حمل لي عصفور ذات يوم من الأم الرؤوم رسالة :

- ستكونين قريبا أما .. لا تنسي أن تحملي بناتك الوصية الخالدة .. التي حملتها أمة النخل منذ خلقنا في هذه الدنيا :

- **"خلقنا لنمنح رطبا جنيا وننشر ظلا ظليلا ونطعم زادا هنيئا".**

خريف 2013 م

1

صاح فيهم الإمام من فوق المنبر .. هددهم بعصاه التي يستند عليها .. أنذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .. طالبهم بوضع حد للفتنة والفرقة في الواحة .. أغلظ لهم القول .. ساق لهم الآيات المحذرة والمنذرة .. زادهم أحاديث نبوية كثيرة من معينه الذي لا ينضب ..

طئطئت الرؤوس خجلا ..

2

أُقفلت أبواب المسجد على الأعيان وكبار الواحة بطلب من الشيخ .. كان عليهم وضع حد لهذا الخلاف المزمن .. طال انتظار الناس خلف الأبواب للوصول إلى حل .. اكتظ السوق الملاصق للمسجد بالناس من كل الأحياء .. ينتظرون ما يسفر عنه اجتماعهم .

3

كان الخلاف على أشده داخل المسجد .. انقسم أهل الحل والعقد إلى فريقين .. فريق يؤيد ما أشار إليه الشيخ في خطبته .. وفريق آخر يبرر أسباب الخلاف .. كان هذا الفريق أكثر تأثيرا من نقيضه الراغب في السلام .

4

الناس مجتمعون في السوق .. بعضهم ملاصق لباب المسجد الموصد على أهل الحل والعقد ليحلوا ما تعقد من أمر الواحة .. وصلت لمسامع المنتظرين خلف أبوابه شذرات مَما يقال خلف الأبواب .. استنكر البعض تأخرهم في الوصول إلى حل كل هذا الوقت .

5

انتهى يوم كامل .. لم يسفر لاعن حل ولا على رأي .. لم تفتح الأبواب على جديد .. أغلقت ليوم آخر لعلهم يصلون لاتفاق .. في السوق ضجر الناس .. زاد عدد المتجمهرين .. امتلأت

ساحة السوق بالمنتظرين حتى فاضت إلى الازقة الملاصقة للسوق .. جرى نقاش بين الناس .. انقسموا أيضا .. تصاعد الخلاف بينهم أيضا .. لم يكن حال من كان خلف الأبواب خير من حال من ينتظر أمامها .. لم يخلُ الأمر من مناوشات كلامية .. جرت بين المؤيدين لما قاله الشيخ وبين المعارضين لفكرته وتدخله .. عللوا ذلك برغبتهم في استمرار الحال على ما وجدوا عليه آبائهم .

6

احتدم الأمر .. لا جديد خلف أبواب المسجد غير مزيد من الخلاف .. تذاكر الناس أسباب الخصام .. تحمس البعض لتأجيجه .. وقف آخرون ضد تطور الأمور في السوق ..

أحدهم تسلل من بين الجموع .. غادر ساحة السوق دون أن يفطن له أحد .

7

خرج من بيته بطبل ضخم .. احتضنه بكلتا يديه .. كأسد ينقض على فريسته .. بل كأم تحضن وليدها .. لم يكن ثقيلا في

وزنه .. بل كان كبيراً في حجمه .. صادعا في صوته .. رهيبا في أثره .. وصل إلى السوق .. شق له طريقا بين الجموع المنتظرة .. وضع حمله على الأرض ..

انتبه له من بالسوق .. توجسوا شراً من مرأى طبل الحرب بين أيديهم .. مر وقت ليس بالقليل تأمل فيها الوجوه ..

ضرب عليه ضربته الأولى .. زلزلت لها أركان السوق .. تبادل الناس الهمهمات ..

مر وقت آخر أحس الناس بطوله رغم قصره .. الضربة الثانية على صدر الطبل الضخم ميز الناس إلى فريقين .. فرقهم إلى قسمين .. انحاز كل إلى جانب حيه .. جثم صمت الانتظار على المكان .

8

فتحت أبواب المسجد على عجل بعد الضربة الثانية لطبل الحرب المدوية .. خرج المجتمعون ليتبينوا الأمر .. انحاز أهل الحل والعقد كل إلى حيّه .. شيخ المسجد الوحيد الذي ظل واقفا

أمام باب المسجد الذي يتوسط ساحة السوق .. اختفت الهمهمات في رعب اللحظة .. العيون شاخصة لحامل الطبل تنتظر قراره .

9

حمل الطبل من جديد .. سار به بخطًى ثابتة واثقة .. حط بحمله أمام موقف الشيخ .. استل من حزامه خنجراً .. لوّح به في الهواء أمام الجمعين المتقابلين .. انعكس على نصله الحاد شعاع الشمس .. ما زاده وحشية .. انهال على صدر الطبل بطعنة نجلاء قوية .. مزقه .. كشفت ضربته عن جوفه الخاوي ..

تنفس الناس الصعداء .. تخلت الأيادي عما استتر من أسلحة بين طيات الثياب .

فقدت الواحة طبلا أعاد لها أمانها ووحد صفها .

1

قطعها دون تردد .. انهارت .. سقطت أمامه .. وضع قدمه على رقبتها .. ابتسم مزهوا بفعلته .

2

عمل فأسه في جريدها تقطيعا .. .. صارت أشلاء متناثرة .. مزق بمنجله ليفها إرباً .. وصل لقلبها .. وجده أبيضا نقياً .. انتزعه .. نهشه بنهم .

3

عاد ليحتفل بنصره .. حمل من أشلائها حطبا .. جعل من قلبها غذاءه .. نام طلبا للراحة بعد عناء .

4

زارته في منامه .. وقفت شامخة أمامه .. استهزأ بها .. رمته بوابل من كرنافها .. قيدته بمسد من ليفها .. جلدته بقسوة جريدها .. سقطت عليه بثقل جذعها .. استيقظ فزعا .

5

لم تفارقه .. تهاجمه بمجرد أن يسلم نفسه للنوم .. تتفنن في عقوبته .. تتلذذ في تعذيبه .. لم يعد بمقدوره تحمل المزيد .. كان يفر من النوم خوفا من زيارتها .. طال عليه الأمر .. ذهب يطلب العلاج عند الفقيه .

6

جلس أمامه القرفصاء .. بدا على وجهه آثار السهاد والأرق .. نحل جسمه وضعفت قواه .. قص عليه كامل القصة .

7

سأله :

- هل غرست فسيلة قبل أن تقدم على فعلتك النكراء ؟..

هز رأسه نافيا .. امتدت عصا الفقيه لتحط على رأسه .. لم تكن بقسوة ضربات نخلة حلمه .. لم يكتف الشيخ بضربته بل أضاف :

- يا لك من أبله .. تحمّل إذاً جزاء وقاحتك وجرأتك وسوء أدبك.

- لم أفهم عما يتحدث الفقيه .. أنا أتحدث عن نخلة أزلتها لحاجتي الماسة .

- أسرع بتكفير ذنبك وغسل عارك قبل أن يحل عليك سخطها وغضبها .

سقطت على رأسه من جديد عصا الفقيه .. كانت مؤلمة هذه المرة .. أضاف الفقيه مؤنبا :

- هل نسيت العهد ؟

8

ذلك العهد الذي قطعه الأسلاف على أمة النخيل .. تلك الأمة التي كانت لنا عونا على الصحراء .. بل أفضل حليف وأقوى مناصر لنا في حربنا مع غطرستها وجبروتها .. كانت لنا سقفا

لدورنا .. وحطبا لمواقدنا .. وحبالا لأحمالنا .. وزادا وقوتا لنا .. وسلعة لتجارتنا .. قطعها اعتداء على العهد .. قتلها خيانة للرفيق والحليف .. فعلك نكران .. نكرانك خذلان .. خذلانك جحود .. جحودك بغي .. بغيك استهتار .

- لم يخبرني أحد بقصة العهد ولا من أبرمه !

- الصفقة عقد .. أبرمه الوفاء .. مع أمة كانت دوما لنا أحسن جار .. وخير معين .. تعطي بلا حساب ولا تنتظر جزاء .. كل ما ترجوه هو حسن الجوار.

- جار ؟

- إذا لم تحسن الوفاء .. فعليك أن تُحسن الجوار .

- هل لشيخي أن يوضح ما استغلق علي فهمه ؟.. نخلتي شاخت ولم تعد تثمر كسابق عهدها فقطعتها .

لم يحسن تفادي عصا الفقيه .. نزلت على رأسه مؤنبة :

- علمتنا الصحراء أن لا نتخلى عن بقايا الماء لمجرد لمع السراب .. قطعك للنخلة سراب في صحراء لا ماء فيها .

- ما الحل يا شيخنا ؟

- لا تتخلى عن بقايا الماء حتى تجد ماءً لا سراباً .. علمنا الأسلاف أن لا نقطع عهدنا بنخلة قبل أن نجدده مع غيرها .

- فهمتُ الآن .. سأغرس نخلة قبل أن أقطع نخلة .

تفادى العصا هذه المرة .. أسرع خارجا .

1

خرجت القابلة من الكبة تحمله .. امتلأ فراغ التمانحت بالزغاريد .. تسلل ما فاض منها إلى البيوت المجاورة .. كانت مدعاة لتغص التمانحت بالنسوة للتهنئة .

2

ألبسته ثوبه الأحمر الموشى بخيوط ذهبية .. أخفت رأسه الصغير في قبعة حمراء مثلثة الأركان .. لم يتوقف عن البكاء .. القمته الثدي العامر .. رفضه .. استمر في بكاءه .. حاولت مراراً .. رفض في كل تلك المرات .. استنجدت بخبرة الجدة .

3

استعاذت الجدة من كل شيطان تعرفه .. استعانت كذلك بكل ولي سمعت به .. لاكت تمرة سوداء .. حنكت بها الوليد .. أبدى

امتعاضا ورفضا لبلعها .. بصعوبة ومشقة استطاعت بخبرتها الطويلة أن تجبره على بلع ما لاكته له .

4

استقبلت معدته الخاوية السائل الأسود .. هدأ قليلا .. أخذته سنة .. حاولت أمه سائر ذلك اليوم أن ترضعه .. كان رفضه قاطعا .. مصاحبا ذلك بمقطوعته البكائية المزعجة .. طلبت الجدة المرضعات .. رفض الوليد الأثداء المتطوعة .. تقيأ كل ما أجبر على ابتلاعه من حليبها بنكهاته المختلفة .

5

لاكت له تمرة .. ابتلعها على مضض .. استساغ الطعم .. هدأ وارتاح فنام .. قصت الجدة لابنها عن غرابة وليده .. طلبت منه البحث عن علاج ..

توجه لطبيب الواحة .. صب على مسامع الطبيب معضلته .. أغمض الحكيم عينيه .. طال صمته وإغماضته .. ظن أن النوم حل عليه بسلطانه .. همّ بالمغادرة .. حينها فتح عينيه الضيقتين .. أجابه :

- رغم سنيني الطويلة لم أسمع بمثل هذه المعضلة .

قام ليودعه وقبل أن يصل للباب استوقفه قائلا :

- استعن بالنخلة .. ما دام استساغ ثمرتها .. امنحه قلبها لعل فيه شفائه .

6

وقف في وسط بستانه .. يتأمل نخيله .. في يمناه فأسه .. طاف بالبستان بحثا عن ضحية .. حار في اختياره .

بعد تردد اختارها لتكون القربان .. وقف أمامها .. تمعن فيها .. كانت شابة .. ناضجة .. يافعة .. ذات قوام ممشوق .. جذعها طري ممتلئ .. قلبها كثيف .. حجبته بثوب من الجريد شديد الاخضرار .. التصقت بها فسائلها الأربعة .. كن صغيرات .. ضعيفات .. عمل منجله بهمة لإبعادهن عن الحضن .. مر وقت أليم .. انتزعهن من الحضن .. مسح عرق الوجع .. حمل التوائم على ظهره .. أبعدهن عن مرقد الأم .

7

حمل فأسه .. عمل بنفس الهمة .. ضرب القوام الممشوق .. نزل من الجذع الطري سوائل بيضاء شحيحة .. أن أنين الوجع .. لم يوقفه الأنين .. صار في الجذع أخدود .. توقف ليتزود ببعض القوة .. استحسن ما قام به .. واصل عمله .. صرخ الجذع صرخته الأخيرة .. كان سقوطها مدويا .. أثار الغبار والحزن أيضا .. نزع عن القلب ما حجبه من جريد .. استخرج الثمرة الناصعة البياض .

حفر بمسحاه موطنا جديدا للتوائم اليتيمة .. بعيدا عن مصرع الأم .. وقفن على استحياء .. يذرفن حزنا .. حمل الكتلة البيضاء .. قلب الأم المصروعة .. كان عليه أن يضحي .. فكانت هي القربان .

8

قدم القربان للأم .. تناولته على عجل .. تلت عليه بعض التمائم المجهولة .. قطعته إلى قطع صغيرة .. طحنت إحدى القطع في مطحنتها النحاسية .. صبت العصارة البيضاء في وعاء صغير .. بللت شفتيي الوليد بالترياق .. توقفت نوبة البكاء

المتواصلة .. تلذذ بالسائل الابيض .. سقته باقي الترياق .. ألقمته الام ثديها .. تقبله .. امتص منه غذاءه .. امتزج السائلان في جوف الوليد .

9

بدأ أقل بكاءً .. استأنس لضرع الأم .. مرت الأيام والأسابيع والشهور .. حبا فيها وزحف واستوى على ساقيه .. مشى خطواته الأولى .. كان حال التوائم الأربعة شبيها بحاله .. صارت أصلب عوداً وأغلظ جذعاً وأورق جريداً .. وأطول قامةً .

10

صار تمر النخل عشقه .. لم يكن مجرد غذاء فقط .. بل كان مصدر حياته .. بل حياته .. رافقه لقب ابن النخلة منذ صغره .. حتى أن بعض الخبثاء ينعته بالتوأم الخامس لتلك النخلة القربان .. التصق به اللقب أكثر إذا لا يُرى إلا بجوار التوائم الأربعة .. يسقيها ويعتني بها ويزيل ما نبت في محيطها من أعشاب متطفلة.

11

بدأت علامات النضوج واضحة على التوائم اليتيمة .. تزينت بعراجين صغيرة .. حملت بلحا أخضر .. فرح كثيراً عندما أسقطت له أول ثمرة كاملة النضوج .. أسرع بها نحو أمه لينقل إليها البشرى .. كان لها مذاق خاص في فمه .. فهذه أول هدية يتلقاها من أخواته التوائم .. توالت الهدايا وكثرت .

12

مرت الأعوام .. كبر فيها ونما عوده .. بدت عليه ملامح الفتوة والقوة .. استطالت التوائم أيضا .. عانقت السماء .. تشابك جريدها .. نشرن ظلالا جميلة في البستان .. تناسلن .. تكاثرن .. فرح كثيرا ببناتهن .. غرسهن بالجوار .. امتلأ البستان ظلا وثمرا وحبا .

ربيع 2013 م

1

غادرت القافلة في موعدها .. اثار تخلفه عنها تساؤل الواحة ..

رغم كبر سنه ووهن جسده إلا أنه استمر على عادته في التجول في أزقة الواحة .. ما أثار المزيد من التساؤل والامتعاض .

2

لوحظ عليه إطالة الوقوف أمامْ أحد الأبواب .. رغم وجوده في زقاق فرعي معتم .. اشتكى أهل البيت للقاضي .. مَثُل أمامه .. وجد خصومه في انتظاره .. سأله القاضي عن سبب إطالة وقوفه أمام باب دار خصومه .. تحدث لأول مرة منذ وصوله للواحة .. صدمهم الجَواب .. بل أخرسهم :

- إنه البيت الذي ولدتُ فيه .

3

استشاطوا غضبا .. لم يكترث .. همّ البعض بضربه .. أوقفهم القاضي .. طالبوه بالتوضيح .. ذكر لهم اسمه .. صُعقوا هذه المرة .. أجاب القاضي نائبا عنهم :

- لكن حامل هذا الاسم مات منذ أكثر من خمسين سنة .

استفزهم تماسكه بعد أن رشقه القاضي بهذه الحقيقة .. رده كان هادئا :

- هل تعني تلك القافلة المشئومة ؟
- نعم .. تلك القافلة لم ينج منها أحد فقد هلكت عن بكرة أبيها .
- شخص واحد نجى من تلك الكارثة .. هو الواقف أمامك الآن .

القاضي هو الذي طالبه بالتوضيح هذه المرة .

4

كنتُ قد تجاوزتُ العاشرة بأيام حين قرر والدي أن أصحبه في تلك الرحلة .. على الرغم من اعتراض أمي كنت متلهفاً للرحلة والسفر .. في تلك الليلة التي سبقت الهجوم على القافلة ..

حدثني والدي كثيرا .. زودني بوصاياه .. كان لديه إحساس بأن شيء ما سيحدث .. قضى باقي الليلة يحفر حفرة عميقة داخل خيمتنا الصغيرة .. عند الهجوم في فجر اليوم التالي طلب مني أن استلقي بالحفرة .. أمرني أن لا أخرج من الحفرة حتى ينجلي الأمر .. أسقط خيمتنا الصغيرة .. فكانت ساترا لي .. لم يطل الأمر .. يبدو أن حرس القافلة قد تواطئوا مع المهاجمين .. خرجتُ بعد أن هدأت الاوضاع وسكن المكان .

5

وقع بصري على أفضع مشهد يمكن أن تراه عين إنسان .. امتلأ الفضاء بجثث أهل القافلة وبعض المعتدين .. بحثتُ بين الجثث عن جثة واحدة .. وجدته مجندلا أيضا .. بكيت طويلا .. في اليوم التالي دفنته .. بقيت في المكان أياما كثيرة دفنت فيها باقي الجثث .. بعدها وصلت أول قافلة .

6

- فقدت إحساسي بالمكان وكذلك الزمان .. لم يعد في ذاكرتي شيء مما كان فيها .. اختفت الأسماء والصور .. كلما بقي فيها ولم يغادرها هو ما حدث ذلك الصباح المشئوم .. بقيت المشاهد

ماثلة أمامي .. تتكرر في كل لحظة .. لم تبرَحني صورة أبي المضرج بدمائه .. اعتنى بي سيد القافلة .. اصطحبني معه .. منحني اسماً آخر .. بعد أن عجزتُ عن تذكر اسمي الذي حملته منذ مولدي .. تركني عند أحدهم في أول محطة من محطات القافلة .. واصل سفره الذي لا ينتهي .. هناك عملتُ أجيراً لأكسب قوتي .. غادرتُ بعد وقت ايضا .. سافرتُ صحبة قوافل أخرى لأماكن أبعد .. أبحثُ عن اسمي ورسمي ونفسي .. تعلمتُ خلالها أشياء كثيرة .. كان ينقصني شيء واحد .. بحثتُ عنه طويلا في كل المحطات .. لم أجده رغم أني لم أتوقف عن الترحال والبحث من أجل الوصول إلى غايتي .

سكت مستجمعا شمل القصة .. كان تأثر القاضي واضحا .. طالبه بهزة من رأسه بإكمال اغرب قصة سمعها القاضي في حياته :

- كان المكان الوحيد الذي لم أذهب إليه هو هذه الواحة .

8

فرت دمعة .. تبعتها أخريات .. بكى طويلاً .. ربت القاضي على كتفه مهدءً .. كانت في عيني القاضي دمعة تحاول المرور .. أكمل بعد أن هدئت نفسه :

- بدت الواحة تلوح في الأفق .. تحرك شيء ما في داخلي .. دخلت الواحة .. انتابني شعور بالأمان .. لأول مرة منذ صبيحة الكارثة اشعر بهذا الشعور .. أيام قليلة وأنا أحاول أن أعرف سببا لهذه الحالى التي تجتاحني .. شعرت أن لهذه الواحة علاقة بكارثتي .. أحسستُ أيضا أنها المحطة الأخيرة .. غادرت القافلة .. بحثتُ عن نفسي في الواحة .. طفتُ أزقة الواحة .. شعرتُ أني أسير في دروب أعرفها .. حملتني قدماي ذات يوم إلى مكان سمعت أذناي نغمة أعرفها وأعشقها .. تتبعت الصوت وجدت نفسي في كتّاب الاطفال .. هناك انهالت عليّ ذكريات كثيرة .. تذكرتُ اسمي نطقتُ لأول مرة بلساني القديم .. عادت إلي لساني لغة الأجداد .. بدأت ذاكرتي تسترجع تلك المشاهد الصغيرة والقليلة التي ضيعتها صبيحة تلك الهجمة .. سرتُ في أزقة الواحة بحثاً عن بيتنا القديم .. وصلتُ إليه بعد جهد .. وقفت أمام

بابه .. تذكرتُ أسماء قاطنيه .. أمي وأخوتي أبي .. في اليوم التالي تذكرت أسماءَ جديدة وأحداثاً جديدة .. كان لوقوفي المستمر أمام الباب فعل السحر على ذاكرتي المفقودة .

سكت الكهل .. مسح بكم ثوبه دموعا سحها بسخاء على خده .. حاول القاضي أن يعيده لسكينته وهدوئه .. طلب من خصومه المغادرة والعودة في اليوم الموالي .. خرجوا على مضض .. سأل القاضي جليسه الغريب قائلا :

- هل تتذكرني ؟.

نظر القاضي في وجه الغريب .. بحث فيه عن ملامح صديقه الصغير .. نجحت اثار السنين في إخفاء كل أثر لصديق طفولته .. عبثت بتلك الملامح الصغيرة .. شاخت بفعل الأهوال التي مر بها .

هز الكهل رأسه معلنا عن فشله في استرجاعه من ذاكرته .. خرج إلى أزقة الواحة طلبا لمزيد من الماضي .

9

قبل أن يغادر مجلس القاضي كان الخبر قد وصل إلى أسماع كل الواحة .. فرح البعض .. بينما استاء آخرون .. وصل إلى ساحة السوق .. قرأ في عيونهم قصته .. بحث في ملامحهم عن طفولته .. طالت وقفته .. تأملته العيون مليا .. تأمل بدوره الوجوه مليا .. باحثا عن شبح قصة في ملامحهم .. دخل إلى صحن الجامع الكبير بعد ان انتشله الآذان من العيون التي ترقبه بحذر .

10

جن ليل الواحة .. في خلوته التي اتخذها في الجامع الكبير .. اتخذ من احدى اسطواناته متكئاً .. حاول أن يستدرج من ذاكرته الطرية هويته .. وصلت إلى مسامعه انغام منبعثة من مكان ما في أطراف الواحة .. أعار سمعه .. حاول أن يبدد سكون خلوته بمتابعة اللحن البعيد .. تجاوب مع النغم .. خرج إلى الصحن طلبا لسماع أوضح .. أساخ السمع .. شعر بألفة .. خرج من المسجد وقف في ساحة السوق مركز الواحة .. دار حول نفسه بحثا عن مصدر النغم .. بعد دقائق من وقوفه .. عاد للواحة صمتها وهدوئها .. تأسف .. جلس على مصطبة في طرف ساحة السوق

.. عاد النغم ليملأ سماء الواحة .. فرح له وابتسم أيضا .. رغم وضوح النغم شعر كأنه ينبعث من داخله .. أحس بأن ذاكرته تعمل كإعصار هائج .. تزيل أطناناً من الركام عن محتوياتها .. تتبع مصدر الصوت .. شيء ما يقوده لمكان لا يجهله ولكنه أيضاً لا يعرفه يقينا .. اقترب من مصدر النغم .. صوت الغيطة ممتزجا بإيقاعات البنادير .. اهتز كيانه .. وصل للميدان الذي اكتظ بالواحة .. وقف يتأمل المكان بأعين غائبة عن المكان .. زادت سرعة الإعصار وهيجانه في رأسه .. حرك ركاما عمره خمسون سنة .. أزاله في غمضة عين .. أخرج له صورة بعينها .. طرحها امامه .. أغمض عينيه .. أخذ عقله المنهك يقارن بينها وبين المتجسدة أمامه .. ارتفع إيقاع الطبول .. زادت حماسة الناس للغريب الواقف وسط الساحة .. في انتظار أن يجود عليهم برقصة ما .. بحث بين الوجوه المرسومة في عقله عن وجوه تماثلها في واقعه .. عرج العازف على لحن قديم .. أثار به الحضور .. هيجهم .. نزف جسده عرقا كمن أصيب بحمى .. تحرك في خطوات بطيئة راقصة .. تتبع وقع البنادير في خطواته .. فرد يديه مقلدا الصورة القديمة التي يبثها عقله بثا مباشرا من ذاكرته .. تعرف على نفسه في تلك الصورة .. قلد حركاته

ورقصته في تلك المشاهد التي جادت له بها ذاكرته .. امتع الحضور برقصه .. عجزت قواه عن مواصلة رقصه .. خانته سنواته الستون .. ترنح .. أوقف العازف عزفه .. صمتت البنادير بدورها .. استند إلى جدار .. أجلسوه .. التقط أنفاسه .. جادت عيناه بمائها .. مسح ما انهمر منها بكمه .. أنهكته رحلته إلى الماضي .. بدأ طريق العودة إلى حاضره .

11

أسلمته الذاكرة إلى الحاضر .. فتح عينيه الدامعتين .. وجد القاضي ـمامه .. استدعاه ـحدهم على عجل .. ليقف على وضع الغريب .. خلفه وجوه كثيرة وسحن مختلفة .. تحاول تحفيزه بابتساماتها .. سأله القاضي :

- هل تذكرتني ؟

نظر في عينيه .. بحث في سيماء الوجه الذي غيرته التجارب .. بحث عن ملامح طفل يعرفه .. نزع عن الوجه سيماء القاضي وصرامته .. أزاح عنه لحيته وعمامته .. أرجع لشعره سواده .. ولعينيه براءتهما .. أعاد رسم صورة الطفل الذي كانه قبل

خمسين سنة من الضياع .. هاج الإعصار من جديد .. استجدى ما تبقى مطبوعا من صور في ذاكرة طفل كانه أيضا يوما ما ..

- أرى في ذهني صوراً لأطفال كثيرين .

استفزه القاضي .. طالبه باستدرار المزيد بقوله :

- هل تذكر أسمائهم ؟.. هل تعرفت إلى أحدٍ منهم ؟

بحث في الصور عن القاضي الذي كان يوم طفلا .. استبعد أطفالاً كثيرين لاحت له صورهم ماثلة عيانا بعد أن تمعن في براءتهم .. لم يجد فيهم قاضيه الذي سيقضي بحكمه فيه .. فتح عينيه استحثه القاضي بنظرة مشجعة مصحوبة بابتسامة ثقة .. غاص في العينين المتوهجتين .... استجدى الذاكرة .. حث الاعصار .. هاج من جديد .. نز عرقا كان كفيلا بإغراقه .. لاحت صوراً جديدة على ذاكرته .. أوقفته صورة بعينها .

- وجه ملاك .. ناصع البياض .. رسم ابتسامة على شفتيه .

استحثه القاضي من جديد ..

- حاول تذكر اسمه .. هيا حاول .

هاج الإعصار من جديد .. كانت الصور تتغير تباعا .. كلها مليئة بوجوه صبية الواحة .

- أرى الآن صبية في كتّاب الواحة .
- ماذا ايضا ؟
- شيخ مسن .. يحث طلبته على المزيد من التلاوة بعصاه الطويلة .

بحث بين وجوه الصبية عن وجهه .. عثر عليه بعد بحث في الوجوه البريئة .

- في صف بعيد عن متناول عصا الشيخ .. طفلين .. يبدو أنهما صديقين .. أحدهما هو أنا .
- من هو الآخر .. هل تذكره ؟.. حاول هيا .

شجعه الحاضرون أيضاً .. حاول أن يبحث لصاحب ذلك الوجه الناصع البياض عن اسم .. كانت عينا صديقه الطفل تبث رسالة .. نفس الرسالة التي وصلته من عيني القاضي .

- إنه صديقي .. أعز أصدقائي .

- حاول تذكر الاسم .. هيا .

عاد إلى الصور المرسومة في مخيلته .. غرق من جديد في عرقه .. لاحت له صورته مع صديقه الطفل .. يسيران جنبا إلى جنب .. يتجهان إلى مكان ما .

- نسير معا إلى مكان ما .
- استمرا في السير .
- تجاوزا ساحة السوق .. سارا في شارع طويل .. أفضى بهما إلى زقاق معتم .. وقفا أمام باب فتحه رفيقي .. دخلنا معا.
- هل هو نفس البيت الذي كنت تقف امام بابه .
- كلا .
- اذا تذكر صاحب البيت .. او اسم صديقك .. أو مكان الزقاق .
- اعتقد انه لا يبعد عن زقاقنا .

أوقفه القاضي .. أخذ بيده .. سارا معا في تلك الأزقة المعتمة .. تبعهما لفيف من أهل الواحة .. وقف عند مكان ما .. طلب منه التعرف على الزقاق والبيت .. تقدم الغريب خطوات .. ولج زقاقا معتما .. سار كمن ألف المكان من عقود .. وقف أمام باب من أبواب متناثرة على جانبي الزقاق .. أشار للقاضي .

- هذا هو البيت .. هنا كان يسكن صديقي .

- لمَ استعصى عليك الاسم ؟.. هيا حاول .

خرج من الزقاق .. تبعه القاضي ولفيف الفضوليين .. التفت للقاضي .. تأمل الوجه من جديد .. منحه ضوء القنديل صورة أفضل .. لأول مرة ينتابه إحساس انقبض له صدره .. وجد في عيني القاضي عيني صديق طفولته .. وصفاء بشرته ونظارة وجهه .. اجتهد أن يتذكر الاسم .. تحرك الاعصار من جديد .. هيج وغربل الذاكرة .. فتح عينيه .. كانتا تذرفان دمعا سخيا ..

احتضن القاضي بقوة .. ضمه إلى صدره .

1

غادرت قافلة الحج محيط القرية نحو الغرب .. مكملة رحلتها إلى مثواها الأخير .. مكثت ثلاثة أيام بلياليها في محيط القرية .. تزودت خلالها بما يلزمها لاستكمال طريقها الطويل .. لم تنتعش تلك القرية فحسب .. بل طال الانتعاش القرى القريبة المجاورة لها .. باعت للقافلة حاجاتها من تمر وزيت ولحم وقديد وخبز .. اشترت بدورها منها ما يلزمها من ثياب وأقمشة وحلي وغيرها مما تجود بها تجارة الحج عادة .

2

استغرب أهالي القرية تخلف شيخ مسن مثله عن القافلة .. كثرت الأقوال عن سبب ذلك .. أرجع بعضهم السبب لمرض ألمّ به .. ما زاد من استغرابهم وكثرة سؤالهم هيئته الرثة .. وتجواله في محيط القرية مستندا على عصاه .. لاكت الألسن سيرة المسن تبحث عن تأويل لبقائه وغرابة أطواره .

3

حاول الأهالي معرفة سر بقائه بشتى الوسائل .. واصل تجواله في محيط القرية بصمت .. جربوا الوصول إلى السر مستخدمين وسائل مختلفة .. تابعه بعضهم عن كثب لمعرفة كنه ما يبحث عنه .. أرسل بعضهم له الطعام لمعرفتهم أنها أسهل وأبسط وأقدم وسيلة لإفشاء الأسرار .. كانت النتيجة دائما نفسها .. فشل الجميع في الوصول إلى مبحثه .. رغم أكله طعامهم في كل مرة بشراهة منقطعة النظير .. بعد أيام قرر أن يبوح بسره ولكن بطريقته الخاصة .

4

ذات صباح تحدث لراعٍ في طريقه للمرعى .. استوقفه وهو يسوق أغنامه .. طرح عليه سؤاله ببراءة :

- أبحثُ عن قبر قديم في هذه الأنحاء .. هل صادفك في هذه البراري المجاورة أوتلك هناك ؟

نفى الراعي معرفته أو رؤيته أوحتى سماعه بمثل هذا القبر .. واصل الراعي طريقه .. طالبه بكتمان الأمر وعدم البوح به ..

ألح عليه في طلبه أيضا .. لم يبلغ الراعي مرعاه حتى وصل السر لكل صاحب أذن .

5

لم يكن ما باح به الراعي كافيا ليشبع نهم القرية لمعرفة خفايا السر .. تحرك البعض بسلاح لا يقهر في نظرهم .. حاصروه بوليمة فاخرة باذخة .. باح بباقي السر أثناء التهامه للوليمة .. إنه قبر ولي صالح .. طاردني كثيرا في أحلامي .. طالبني بالكشف عن قبره .. وبناء قبة وزاوية له .. أضاف بعد أن شرب كؤوسا مترعة من الشاي :

- عجزتُ في الوصول إلى القبر .. لكنه لم يتركني وشأني حرمني لذة النوم ومتعته .. ما أن أضع رأسي لأنام إلا ويبدأ في مطاردتي وإلحاحه .

قبل مغادرتهم له اضاف :

- سأبني القبة والزاوية ثم أبحث عن قبره وأنقله لها .. ساعدوني في اختيار المكان والبحث عن القبر .

6

تلك الليلة لم تنم القرية .. أسهرها السر المفضوح .. هاجت فيه وماجت .

7

مع طلائع النهار زاره أحد وجهاء القرية .. تناول معه أفطاراً جلبه معه .. بادره مع أول لقمة ازدردها :

- أنا مستعد أن اتكفل ببناء القبة والزاوية .

ابتلع أكثر من لقمة قبل أن يجيب :

- سينوبك أجرٌ كبيرٌ على صنيعك .

أضاف :

- أرجو أن تبحث جيدا .. ونحن مستعدون أن نمدك برجال قبيلتنا ليعينوك على بحثك .

لم يمنعه فمه المشغول بمضغ لقمة كبيرة من القول :

- جزاك الله خيراً وفتح عليك وعلى قبيلتك .

قرر الشيخ أن يصل لهدفه مباشرة دون مواربة :

- كل ما نريده أن تجد القبر في أراضي قبيلتنا .

ناوره الشيخ :

- هذا يتوقف على القبر اولاً .

- إن لم يكن قبرك المجهول في أراضينا فلا بأس أن تكون قبته في أرضنا .

8

عند الضحى وصل شيخ مسن بصحبة خادمه حاملا فوق رأسه قصعة كبيرة .. حطت رحالها أمام متكيء العجوز .. جلس إلى جواره .. لم يقاوم رائحتها الشهية .. نزع غطائها وبدأ في التهام محتوياتها :

- أنا مستعد أن أتكفل بمصاريف بناء القبة والزاوية .. كما أن أبناء قبيلتي مستعدون أن يكونوا خداماً للزاوبة وشيخها .

- سينوبك أجرٌ كبيرٌ على صنيعك .

أضاف هامسا بعد ان جلس إلى جواره

- أرجو أن تبحث جيداً .. نحن مستعدون أن نمدك بالرجال ليعينوك .. لابد أن القبر المفقود يعود لأحد اسلافنا .. أقترح عليك أن تبحث في أراضي قبيلتنا .

حشر لقمة كبيرة في فمه بنهم .. استمتع بلوكها قبل ازدرادها :

- أنا اتمنى أن يكون صاحب القبر من قبيلتكم .

همس له قائلا :

- إن لم تجد القبر في أرضينا فلا بأس أن نكون أحفاداً لصاحب القبر .

9

بعد أيام زارت القرية قبة وليها .. فرحة بأعلامه الزاهية المرفرفة .. ولا يزال البحث جارٍ عن قبر مجهول المكان والصاحب .

من مجلسه تأمل شعاع الشمس المتسلل من فتحة التهوية .. اقترب من الشعاع المخروطي .. تسائل :

لماذا يتسع الشعاع الضوئي كلما اقترب من القاع ؟ ويضيق عند قمته ؟

انحنى ناحية الشعاع .. بدت له حزم الشعاع واضحة .. استوقفته حركة الذرات الصاعدة والهابطة .. ابتسم .. تذكر اسمهما الطريف ككيّن و مميّن .. كان يعتقد دائما أن ككيّن هي تلك الذرات الصاعدة .. ولا يعلم لماذا ربط اسم مميّن برفيقاتها الهابطة !..

لاحظ كثرة الذرات الهابطة المنحدرة .. مقارنة بتلك المتجهة نحو الأعلى .. تابع بعينيه الباحثتين المتعطشتين للمعرفة إحدى تلك الذرات الهابطة .. تتبع رحلة انحدارها السريع نحو القاع .. لم تستغرق قليل وقت حتى صارت في القاع .. اختفت صحبة كثيرات غيرها بعيدا عن القمة .

آثر أن يتتبع اثر ذرة أخرى صاعدة نحو القمة هذه المرة .. سره تفاديها الاصطدام والسقوط رغم كثرة الذرات التي فشلت في إنهاء رحلة صعودها .. رغم بطء سرعتها لكنها كانت كافية لأيصالها إلى القمة ..

لم تأبه بكثرة الذرات المعاكسة لها في الاتجاه .. ارتفعت أكثر بثقة .. دعوتُ لها في سري أن تنجح في الوصول لمنتهى غايتها .. عاقها اصطدامها بذرة هوت من علٍ .. دارت حول نفسها .. ترنحت .. هبطت مسافة .. تمالكت نفسها .. تحاملت من جديد ..

استرجعت قوتها .. صححت مسارها نحو القمة .. أعادت قطع المسافة المفقودة بصبر وحذر .. اقتربت من إكمال رحلتها .. دنت من الهدف .. تحمستُ لها ..

أخيرا صارت في أعلى قمة الشعاع .. صفقت لها على إصرارها على إكمال رحلتها المحفوفة بالمخاطر والعقبات .. إصرارها وصمودها مكنها من تحقيق غايتها ووصولها نحو القمة.

عرفتُ سر اتساع قاعدة الشعاع وضيق قمته .. فالقاع يتسع لكل الفاشلين والمحبطين والخاسرين .. بينما القمة لا تتسع إلا للقليل القليل من المجتهدين .

في ذكرى المولد 1434هجرية 2013م

إهداء إلى جدتي عيشة اهلالية التوهامي

إعادة صياغة لحكايتها الاثيرة عن والدها .

1

كان صباحا عاديا كغيره من الصباحات .. استيقظت الواحة مع ظهور أول خيوط النهار .. سارت الحياة في سيرها اليومي .. لكنه لم ينته كغيره من الأيام .. ولم تعد الواحة كما كانت قبله .. عند الضحى لاحت السماء بصفائها الصيفي .. تلونت بلونها السماوي المعتاد .. خالية من بياض السحب .. أضفت صفرة الشمس عليها جمالا .. كانت لوحة بديعة ..عكر صفوها أزيز قادم من المجهول .

2

القلعة الحجرية المطلة على الواحة من أعلى الهضبة .. كانت تقبض على أنفاس المكان .. تعد الحركات والسكنات .. خوَتِ من جنودها الطليان فزعا من الضجيج الباحث عنها للقصاص ..

اختفت الطريدة طالبة النجاة .. أشعلت نيراناً كثيفة في كل مكان .. ليسهل عليهم الفرار .. صار صعبا على تلك الطيور ذوات الضجيج الاصطياد .. فقدت طريدتها تحت سحابات الدخان المكتظة .

3

أفزعت الواحة بضجيج بحثها المتكرر عن هدف اتخذ من الدخان ستارا .. غاضها فشلها .. جالت جولات وجولات .. تكرر فشلها .. غضبت .. اشتعل حقدها .. استحال عليها القصاص .. فقررت إنزال عقابها البغيض على الواحة كلها .. بدأت تتخلص بما في جوفها من كرات الموت في غيض .. نادى المنادي بالخروج من الصرح تفاديا من كارثة لا تبقي ولا تذر .. قد يزول الصرح بما فيه .. فلا بأس بنجاة من فيه .. خرجت الواحة تبحث عن مأمن لها .. ابتعدت عن الصرح الطيني القديم .. توجهت للحقول والبساتين .. أخذت ترقب الضجيج بأسماعها وأبصارها وقلوبها .

4

أبعد الذرية والنساء إلى فضاء النجاة .. عاد إلى الواحة .. ولجها مطمئنا .. التقى في طريق عودته ببعض الطالبين للنجاة .. استغربوا عودته .. لم يجب عن سؤالهم .. ازدادوا حيرة على حيرتهم .. أسرعوا هاربين تاركين الكهل يكمل ما نواه .. وصل إلى بيته .. بقي وحيدا ساهماً في سقيفة البيت .. في عتمة السقيفة تمتم بأدعيته .. ضجيج المطاردة ملأ عليه سمعه ووحدته ..

5

وصل خادمه لاهثا .. وقف أمامَ سيده ورفيقه يستجمع أنفاسه .. تحدث إليه بلسان قبائل الأدغال .. لسان يعجز أهل البيت عن فك طلاسمه .. سأله بذلك اللسان الذي طالما تبادل به الرسائل مع سيده الذي يتقن ألسنة أهل الصحراء وسكان الأدغال كلها .. اللسان الذي يتبادلون به البوح .. يتناقلون عبره الأسرار براحة :

- سيدي .. لماذا عدت إلى مكمن الخطر ؟ .

لم يجبه ضل على حاله ساهما متمتما بأدعيته .. أردف الخادم في فزع :

- الجميع فرْ من تحت البنيان .. لماذا عدت بعد أن أخرجت الذرية ؟ .. بحثتُ عنك طويلا .. لم أتوقع أن أجدك هنا !

- مللتُ الفرار يا منصور .

استفهم الخادم العجوز بلغة الأدغال أيضا :

- مللتَ الفرار ؟!

زفر زفرة حمّلها كل ما يعتمل في صدره .. صفير الطائر الباحث عن طريدته ملأ أسماعهما .. ما أن ابتعد قليلا حتى أجاب :

- نعم .

عاد لصمته وأذكاره .. جرت دمعة على خده .. حجبتها العتمة عن أنظار الخادم .

- اسمح لي أن أشاركك المصير يا سيدي .

جلس الخادم على الأرض قبالة سيده ..

- فرت الواحة طلبا للنجاة والسلامة .. اكتفيت أنت بإخراج الذرية .. ألا ترى أنه حق لمثلي أن يتعجب ؟.

- إلى متى الفرار ؟.. آن لي أن أحط الرحال .

عاد الطائر بزعيق أشد شراسة .. ألقى شيئا من حمله المميت .. دوي انفجار في مكان قريب .. اهتزت له أركان البيت ..تجاهل الشيخ ورفيقه ما يحدث .. أكمل بعد أن ابتعد طائر الموت من جديد :

- نفر من هذا الطائر الذي يزرع الموت اليوم .. فهل سنفر من طائر الموت كل يوم ؟ .. أصبح الموت مطلبي يا منصور .. كنا نهرب من الواحة لنؤمّن العيش للذرية .. ما أن نبتعد حتى نستعجل العودة .. نسارع في العودة خشية أن يدركنا الموت بعيدا عن الذرية .

- ذاك ما تتطلبه حياة الصحراء .. البقاء إلى جانب الذرية لا يجلب الرزق .. حبنا للذرية هو ما يجعلنا نبتعد عنهم .. عليك أن تشد الرحال لتشد الذرية إلى الصرح .

- بعد كل هذا الرحيل والفرار .. أستطيع أن أقول إني أوثقت الذرية بالصرح بكل ما أوتيت من تدبير .. صار عليّ أن أحقق أمنيتي .. أن أموت في الواحة .. ولن أجد قبراً أفضل من هذا الصرح العتيق .. الذي طالما حرمتُ العيش فيه بسبب الذرية .. فلا أقل من أن أموت تحته أنقاضه .

صم الآذان دوي الإنفجارات والانهيارات .. وصل إلى أسماعهما صدى انهيار جزء من البنيان .. تساقط عليهما التراب من هول الانفجار .. امتلأت السقيفة بغبار خانق لم يبالِ :

- دائماً كنتُ أخشى أن يطلبني طائر الموت وأنا بعيد عن الواحة .. ها هي فرصتي أن أموت مختاراً هنا .. ولن افوتها .. لن أجد قبراً أرحم من هذا ولا أرحب منه .

قرأ الخادم الإصرار في كلام رفيقه .. أكبر فيه حبه لواحته .. أتخذ مكان له في السقيفة ايضاً .. تمدد لأول مرة في حضرة سيده ورفيقه :

- لن تحلوا الحياة بعدك يا سيدي .. لن أجد لنفسي قبرا خيراً من هذا البنيان أيضا .

أطلقت الطائرات من أجوافها القنابل .. صبتها كما تصب السحابة مائها ...... تصاعدت النيران أيضا .. يسبقها الغبار والدخان .. لم يتبين أحد من الأهالي المترقبين خارج البنيان أين حلت الكارثة وبمن نزلت النازلة .

6

سكنت الضوضاء .. خلت السماء من حاملات الموت .. أنهت غارتها الوحشية .. فشلت في اصطياد هدفها .. استمرت سحب الغبار والدخان تعلو سماء البلدة .. مازالت العيون تراقب السماء في كل الجهات خوفا من مباغتة غادرة .. نام الأطفال في أحضان الأمهات بعد أن نال منهم التعب والجهد والفزع والبكاء .. بعد أن خفت الضجيج وأحسوا بشيء من الأمان.

7

نفض عن نفسه الغبار .. خرج ليعيد الذرية إلى الصرح بعد أن فشل في تحقيق أمنيته الأخيرة .. التقى في طريقه بطلائع العائدين للبنيان ..

2012- 2013 -2014 م

طمزة وأخواتها

أهديها لكل من أرعبته طمزة أو إحدى أخواتها

1

كلما تذكرتُ تلك القصة التي جرت أحداثها في ريعان طفولتي إلا واعترتني حالتان .. حالة من الضحك .. وأخرى من الحسرة على تلك الأيام الخوالي .

2

كعادتنا كل يوم بعد خروجنا من كتّاب الحي .. اطلقنا شيخنا الكهل من عقالنا .. تسابقنا في تلك الأزقة الملتوية .. كنا كمن يطارد مجهولا .. توجهنا لمكان لهونا المعتاد .. في " **ايخليف ان مسكينا** " .. لا وجود للزمن في ذلك المكان .. تختفي الساعات لتصبح لحظات .. لا مكان فيها إلا للفرح واللهو .. حتى الخصام له طعم الفرح .. انشغلنا في لهونا المعتاد حتى داهمنا أذان الظهر .. كان يباغتنا دائما في ذروة الفرح وفي أحلى لحظات الاستمتاع

.. وحده كان القادر على أن ينتزعنا من ملهانا وملعبنا .. هرعنا نتسابق من جديد .. قفزنا بقايا السور المتهدم .. طاردنا من جديد ذلك المجهول .. كان اتجاهنا للجامع للاغتسال أولا ولأداء الصلاة ثانيا .. اتفقنا في ذلك اليوم على أن نكمل لهونا في فترة القيلولة .. خصوصا أن ثمار الرمان قد احمرت ونضجت وحان قطافها .. فلا بد من قطافها .. ولن يتأتى ذلك إلا في القيلولة .. حيث تسكن الواحة وتخلد للنوم .. هربا من قيض الصيف .. أبديتُ امتعاضي على التوقيت .. أصر الرفاق .. أذعنتُ صاغرا .

3

عدتُ إلى البيت بعد صلاة الظهر .. تناولنا الغداء .. حاولت أن أنسل إلى الزقاق .. ثم إلى المغامرة .. كنت أشعر بالعيون تقرأ أفكاري .. بل ترصدُ تحركاتي .. ما أن وقفتُ حتى جاء صوت أمي يحطم مخططي .. بل يقيدني بذلك القيد اليومي الكريه .. "النوم" .. هذا السيف المسلط على رقبتي كل يوم .. لا أجد طريقة للفكاك منه .. إنه غلٌ يومي يقيدوننا به .. لا أعلم سببا لعشقهم للنوم في هذا الوقت بالذات .. إنهم يجدون فيه متعة ولذة.. عجيب أمر هؤلاء الكبار .. ألم يكونوا ذات يوم صغارا ؟ .. لابد

أنهم لم يشعروا بما نشعر به من ضيق وتبرم من هذا القيد البائس .. طلبتُ من أمي أن تدعني أخرج للشارع للقاء الرفاق .. رفضت بشدة .. أعدتُ طلبي بتضرع وإلحاح شديد .. عبست في وجهي وهددت بإخبار أبي .. قلتُ لها عن اتفاق الأقران للخروج اليوم .. أجابتني قائلة :

- الا تخشى من طمزة وأخواتها .. ألا تعلم أن طمزة وأخواتها يخطفن كل من يجدنه في القيلولة .. هل تريد أن تكون طعاماً لأطفال طمزة ؟ .

نزلتُ للسقيفة مع أبي على مضض .. محبطا غير مقتنع بهذا المبرر .. طرحت أمي له فراشه في وسطها .. طرحت لي فراشا آخر داخل غرفة السقيفة .. كان الهواء البارد ينساب من الزقاق .. يتسلل طريا منعشا لباقي أرجاء البيت .. كان لي نصيب كبير منه في محبسي المعتم .

4

فكرتُ في وسيلة للخلاص من هذا القيد .. والهرب من هذا الحبس .. كان هناك عائق كبير يستحيل عليّ اختراقه .. كان عليّ أن أخترق والدي قبل أن أصل للباب المفتوح المفضي للزقاق

حيث الحرية والمغامرة .. استلقيتُ على ظهري .. أفكر في مخرج ومهرب من هذه الورطة .. وصلني صوت شخير والدي .. انتظامه يوحي بأنه يستمتع بنومة هانئة والويل لمن يفسدها .

5

ترددت في استثمار الفرصة .. تسللت اختلس النظر وأتحين الفرصة .. رأيتُ والدي ممددا على فراشه .. والباب خلف ظهره مفتوح .. كنت أعلم أن فتحي للباب أسهل من اجتيازي لجسد والدي الممدد على عرض السقيفة .. عدتُ أدراجي .. ألملم شجاعتي وأحسب عواقب فعلي .. كانت صورة ثمار الرمان المتدلية من اغصانها أكثر إغراءً .. حجبت عن عقلي كل ما سواها .. خشيتُ أن أكون المتخلف الوحيد عن هذه المغامرة .. ساعتها سأقذف بتهمة الخوف والجبن وستلاحقني طويلا .. نهضتُ من جديد .. تدربتُ على تنفيذ عملية الهرب .. اتخذتُ من فراشي وسيلة للتدرب .. تخطيتُ الفراش عدة مرات .. نجحتُ في اجتياز الامتحان التجريبي .. عليّ الآن أن اطبق ذلك على الواقع .. استلقيتُ على ظهري التقط أنفاسي وأستجمع شجاعتي و أهيئ نفسي للمغامرة .

6

قطعتُ المسافة على أطراف أصابع قدميّ .. كلي حذر .. شعرتُ أن المسافة ازدادت بعدا .. استطعتُ أن أخترق الحاجز البشري بنجاح باهر .. وصلتُ إلى الزقاق .. السكون يعمُ الزقاق الخالي .. بحثتُ عن أقراني .. لا أحد في الشارع .. كل أبواب البيوت مفتوحة على الأزقة تتنسم وتستمتع ببرودة الهواء .. سرتُ بحذر خشية أن يلحظني أحد من النائمين في تلك السقائف المعتمة .. بحثتُ عنهم في كل مكان توجهتُ نحو ملهانا وملعبنا " **ايخليف ان مسكينا** " .. يبدو أنه لا أثر للحياة في الواحة كلها .. عدتُ أدراجي .. خشيتُ أن أكون تأخرتُ في الانسلال من قيدي اليومي .. تمنيتُ ان أكون قد استعجلت الفرار .. دعوت الله كثيراً أن يلحق بي الأقران .

7

وقفتُ انتظر قدوم الأقران .. العن وأسب على تأخرهم .. أحاول ان أجد تفسيراً ومبرراً لكل هذا التأخير .. سمعتُ حركة ما .. أسختُ سمعي .. استبشرتُ خيرا .. أصوات خطوات تقطع الشارع .. المجاور :

- هاهم الرفاق يتوافدون أخيرا .

من شارع آخر وصل لسمعي صوت خطوات أخرى .. فرحت أيضا .

- يبدو أن مغامرتنا ستنجح وسنشبع من ثمار الرمان كثيرا .

صارت الخطوات أكثر قربا وأكثر ثقلا على الأرض .. وصلت مسامعي أيضا همهمات غريبة .. خشيتُ أن يكون أحد كبار السن هو من قطع قيلولته وخرج .. هذا يعني افتضاح أمري .. اقتربت الخطوات والهمهمات الغريبة أكثر .. وقفت مذعورا للمنظر المهيب الذي صدمني .. لم أتمكن من الصياح .. شُلت قدماي عن الهرب .. كان وحشا بغيضا أسوداً يهمهم .. أقفل بجسده الضخم عليّ ذاك الشارع .. نظرتُ للشارع الآخر عليّ أفر من خلاله .

فوجئت بوحش آخر أشد بشاعةً وأقبح منظراً يسد عليّ ذلك المنفذ .. نظرتُ في العيون الحمراء الجاحظة المنذرة بالشر .. سرقتُ نظري لأعلى عليّ أتسلق الجدار رغم استحالة ذلك عمليا .. رأيتُ مسخا أخر يحرس يراقب المكان .. أسقط في يدي .. تذكرتُ طمزة وأخواتها .. يبدو أني وقعت صيدا سهلا لهم .. ذرفتُ دمعا سخيا .. خارت قواي .. لم تعد قدماي قادرة على

حمل جسمي .. تكاثرت الوحوش وتناسلت .. سدت الشارعين .. أظلم المكان الذي كان عامراً بضوء الشمس المحرقة .. اقتربت مني أكثر فأكثر .. عجزتُ عن الصراخ .. تكومتُ حول نفسي المنهارة .. أنتظر انقضاض طمزة وأخواتها عليّ .. لعنتُ الأقران الذين كانوا سببا في هذه النهاية الدامية المؤسفة .. اقتربت الأجساد أكثر فأكثر .. تحلقوا حولي .. أخفيتُ وجهي الصغير .. انتشرت العتمة في المكان لا مكان لضوء الشمس .. لم أعد ارى شيئا .. لم أعد أسمع سوى شخيراً وهمهمة مخيفة .. صحتُ بخوف :

- سامحيني يا طمزة .. لا تأخذيني .. دعيني أرجوك أرجوك .

أحسستُ بيدها الثقيلة على ظهري .. ربتت اليد على ظهري .. تكومت على نفسي أكثر .. حاولت تلك اليد رفعي من مكاني .. تمنعتُ ودموعي تنهمر .. نجحت اليد من رفعي .. حضنتني أيضا .. أحسست دفئا .. ربتت اليد على ظهري بحنان .. سمعتُ صوتها لأول مرة :

- لا تخف يا ولدي .. لا تخف .

استغربتُ كل هذا الحنان من طمزة .. فتحت عيني لأول مرة لأرى وجه امي تملأه الدموع .

فبراير 2013م

أهديها لعائلة صديقي قاسم الحبيب هيبت

1

حدث في عام 1943 م

تعالى الأزيز .. ارتفعت الرؤوس إلى السماء بحثا عن مصدره .. اقترب من الواحة .. عكر هدوءها اليومي .. تبينته الرؤوس المتسمرة إلى صفحة السماء .. عرفت أنه لطائرات فرنسية .. حامت في أجواء الواحة طويلا .. قطعت سماءها شرقا وغربا .. شمالا وجنوبا .. تبحث عن هدفها .

2

حل ضجيج الطائرات محل الهدوء والسكينة .. سادت الفوضى أرجاء الواحة .. المنادي لا يزال ينادي صائحا بالناس موجها لهم بإخلاء البيوت والأزقة .. خرج أطفال الكتاب يتصايحون ذعرا .. جروا على غير هدىً في الأزقة والشوارع التي ملئها الرعب والخوف والفزع .. الجموع تتجه خارج البيوت

.. اتجه سيل الأهالي نحو البساتين .. بعيدا عن الواحة التي لم تعد آمنة من هذا العدو المحلق فوق سمائها .

3

حلق الموت فوق الرؤوس المذعورة .. بحث طويلا عن هدفه .. اختفى هدفها تحت سحابات الدخان المكتظة .. فشل في تحديد مكانه ..عاود البحث عله يصيب الهدف .. حصد الفشل من جديد .. غاضه أن يعود خائبا .. ألقى ما في جوفه من حميم ولهب .. ارسل الموت في كل مكان .. نجى الهدف من كرات الموت .. لم تنجُ الواحة من غدره .. بدأ الموتِ يختار ضحاياه الواحد تلو الآخر .

4

احتمى كثيرون بالفرار .. فضل البقاء .. تحدى الموت الذي يصول فوق سماء الواحة .. انتظره في سقيفة بيته .. جلس هاديا كعادته .. تمتم بأدعيته وأوراده .. لم يبال بضجيجها .. يعلم أن الضجيج علامة جبن .. يعلم أن انتظار الموت قوة .. تحداه ببقائه .. عانده بصمته .. تساقطت كرات الموت .. حاقدة مرتعبة .. ابتسم لها ..

تسلح بدعواته .. انهارت أجزاء من الواحة .. كبر وهلل .

تداعت جدران البيت .. استرجع وحوقل .. انهار سقفه فاستغفر ..
تهوى جسد البيت .. التحم بجسده ..

ابتسم ..

5

احتضنت الواحة جسد ابنها البار .. اخفته .. حمته .. جعلت له من طينها كفنا .. بنت له من قلبها قبرا دافئا .. نام قريرا .. شهيدا .. التحم الطينان من جديد .. امتزجا في جسد واحد .

6

خريف 2013 م

أكلت جسده .. اختلط بطينها .. عاد إلى أصله .. تخلت لنا عن العظام .. لتكون لنا آية .. علامة على حب دام طويلاً .. عقود من العشق .. لتعلم ابناءها سيرة حبها .. باحت لهم بسرها .. تخلت عن العظام ليدفنهم الأحفاد .. إلى جوار عشاق الواحة الجدد ..

من ماتوا عشقاً لها .. فداءً لها .. ليتجاور العشاق في سكنهم .. ليتحاكوا قصص فدائهم وعشقهم وهيامهم في حب الواحة .

1

قطع نداء أمي أحداث حلم ممتع .. أجبرني إلحاحها على فتح عينيّ بصعوبة .. نظرتُ حولي بجفنين نصف مفتوحتين .. لا أثر لأمي في المكان .. وجدتُ نفسي متكوما على نفسي بلا أغطية .. لم أجد سبباً وجيهاً لإيقاظي .. انتابتني رغبة ملحة في النوم .. سحبت اغطيتي من جديد .. أكملت إسدال جفنيّ .. وصل لمسامعي نداءها من جديد .. نزعت الغطاء على فتحة التهوية التي تعلو سقف التمانحت – الباحة - .. تسلل ضوء الصباح الشحيح مصحوبا بشعاع دقيق للشمس .. نزلت أمي من الدرجات المفضية للسطح .. تحمل صفرة الإفطار .. ابتسمت قائلة :

- اليوم أول يوم تمشي فيه إلى الكُتّاب .

طارت كل رغبة في النوم .. فتحت جفنيّ على وسعهما .. لا أمل في البحث عن بقايا الحلم الضائع .

2

تناولتُ إفطاري على عجل .. ألبستني ثياباً جديدة .. مسحت على رأسي قائلةً :

- هذه هي ملابس الكُتّاب .. ستذهب كل يوم بها .

فرحتُ بالثياب أكثر من فرحي بسبب ارتدائها .. وصلت نحنحات أبي من سقيفة البيت يستعجل أمي .. أسرعتُ لتناول حذائي من الخزانة أسفل الدرج المؤدي للسطح .. قبل مغادرتي للتمانحت ألبستني قبعة جديدة ناصعة البياض .. فرحت بها أيضا رغم صغر حجمها على رأسي الكبيرة .

3

سرتُ خلف أبي .. تعمدتُ أن يسبقني بخطوة أو خطوتين .. عبرنا كل أزقة الحي .. اقتربنا من الجامع .. التصق الكتّاب بظهر الجامع .. يستمد منه مكانته وقداسته .. اجتازنا بعض الأطفال في أعمار متفاوتة .. بعضهم يكبرني والبعض الآخر في عمري أو يزيد عنه قليلاً .. يسرعون الخطى نحو الكُتّاب .. وصلت إلى أسماعي أصوات تلاوة الأطفال .. قبل عدة خطوات

من مدخل الكتّاب وقف أبي .. التفت إليّ يستحثني .. أخذ بيمناي .. أصدر توجيهاته وتعليماته الأخيرة :

- خليك عاقل واسمع كلام الفقيه .

صعدنا الدرجات المفضية لصحن الكتاب .. دخلنا يجرني أبي من ذراعي .. فوجئتُ بكثرة الأطفال .. المكان محشور عن آخره .. لا مكان فيه لقدم .. وجوه عرفتُ بعضها وجهلت أغلبها .. أفواههم مفتوحة عن آخرها .. جاهرةً بالقراءة .. يستحثهم الشيخ الطاعن في السن بعصاه .. إشارة من الفقيه بعصاه كانت كافية لإخراس كل تلك الأفواه .. عم الكتّاب صمت وفضول .. اخترقته وشوشة بعض الاطفال .. اخترقنا بعض الأجساد الصغيرة لنتمكن من الوصول للشيخ .. وقفنا أمام مصطبته الحجرية المغطاة بكليم قديم بهتت ألوانه .. جلس كملكٍ على كرسي عرشه .. قدمني والدي له :

- هذا ابني الأصغر .. ربي يعينك على تحفيظهم جميعهم .

تفرس في وجهي .. كان وجهه خاليا من أي تعبير .. عيناه بالكاد مفتوحتان .. قال موجهاً عصاه لي :

- أياك والشغب واللهو .. أذهب واجلس هناك .

أشار بعصاه لمكانٍ ما .. وجدت صعوبة في تحديده بالضبط .. لكني توجهت إلى حيث أشار .. نظرتُ إليه أطلب إيضاحاً .. أشار لي بعصاه ثانية بالجلوس حيث وقفت .. حشرتُ نفسي بالكاد فيما يسمى بالمكان .. تحركت الأجساد الصغيرة مفسحة لي فرجة للجلوس ..

رأيتُ أبي يدس شيئا في يد الفقيه قبل مغادرته .

4

كان الكتّاب ضيقا .. نافذة وحيدة تزوده بضوء النهار وهواء رطب .. صفوفه مكتظة .. غير منتظمة .. صاح الفقيه في الصفوف :

- " بسم الله الرحمن الرحيم "

رددت الجموع بأعلى ما في طاقتها ما تلاه الفقيه .. استمر الفقيه في القراءة ونحن نردد ما يمليه علينا .. مضى الوقت بطيئاً .. طلب منا بعدها ان نقرأ وحدنا ما كرره علينا مراراً .. استبدل عصاه القصيرة الصلبة بأخرى .. أطول قامة وأشد بأسا .. أخذ

يستمع لقراءتنا .. أغمض عينيه .. استند على عصاه الطويلة .. راقب الجموع بأذنه الكبيرة الغليظة .. كان يكتشف مواطن الخلل في القراءة .. ترتفع عصاه .. يوجهها ملوحا بها ومهددا فوق الرؤوس المكتظة .. تنهال فوق الرؤوس المتقاعسة عن القراءة .. كان يتحكم في الكتاب من خلال عصاه .. كان لا يخطأ مكمن الخلل أبدا .. تسلل الوقت بطيئا .. فترت همة الأطفال .. وتسرب الوهن لأصواتهم .. حامت العصا فوق الرؤوس .. أخطأت بعضها .. أصابت آخر .. تفادت أن تصيب أخريات .. تحمسهم وتحثهم على مواصلة التلاوة مرارا وتكرارا .. تفادت الهامات الإصابات بالصياح والترديد.

5

استبدل العصاة بثالثة .. أقصر طولاً وأرق عوداً .. أشار بها .. توقفت الأفواه عن الصياح .. حك بها أماكن بعيدة من ظهره لا يمكنه الوصول إليها .. تثاوب طارداً نعاساً هاجمه فأنهكه .. أخرج من مكان ما كيساً مملوءً .. في البداية كنت أجهل ما بداخله .. لكن السابقون لي في الكتّاب كانوا على دراية به بل كانوا ينتظرونه ..

اختارت عصاه طفلاً .. اقترب من مصطبة الشيخ .. طلب منه تكرار التلاوة .. تلى الآيات على مسامع الفقيه .. أشار له برأسه علامة الرضا .. مد يده في الكيس ومنحه للطفل .. اختارت عصاه طفلاً آخر .. كان ذلك إشارة من الفقيه لسابقه بمغادرة الكتّاب .. أسرع يلتمس حذاءه من بين العشرات .. نجح في اقتناصه بسرعة .. اشرأبت الرؤوس الصغيرة تعترض سبيل العصا ليقع عليها الاختيار .. للفوز بشرف المغادرة مبكراً ..

6

افرغ الكتّاب جوفه في الزقاق .. امتلأ المكان بصخب الصغار .. غادرتُ مع جملة المغادرين .. نجري نحو زقاقنا ومكان لهونا المعتاد .. في فمي قطعة حلوة منحنيها الفقيه .

كان ذلك يومي الأول في الكتاب ..

تلته أيام وأيام .

ديسمبر 2012 م

1

من السهل ملاحظة غيابه عن المسجد .. في طريقهم إلى بيوتهم عرج بعضهم للسؤال عنه والوقوف على سبب هذا الغياب.

2

لم يفتح أحد الباب رغم طرقهم الشديد ..ظنوا أنه قد يكون عند بعض الأقارب كما اعتادوا أيام العيد .

3

بعد صلاة العصر .. فتح صغيره الباب .. اعتذر عن استقبالهم على الرغم أن في الوفد كبار العشيرة .. أما عند صلاة المغرب فكان الوفد أكبر فالأمر صار مريباً وبحاجة لتفسير .

4

هذه المرة استقبلهم .. عجت **التمانحت** بهم .. سأله كبيرهم عن صحته .. أجابهم بما استغربه جمعهم :

- الحقيقة ان سبب غيابي ليس مرضا ألم بي .. لكنها التخمة .

- التخمة !! ؟؟؟

ارتسمت على الوجوه ملامح الاستنكار أضاف :

- نعم .. التخمة .. لا أخفيكم سرا .. بعد الفجر تفقدت سقيطة أضحيتي .. لم أجدها معلقة في مكانها الذي باتت فيه .. ارتبت في الأمر .. خرجت لصلاة الفجر .. عدت مسرعا لأسأل زوجتي عما حل وألم بالسقيطة .. فإذا بها تضع أمامي إفطاري .. أزالت طبق السعف من على الإناء .. كان شكلها غريبا .. لم أرها من قبل .. لم تكن الغرابة في الشكل فقط بل في الرائحة .. أما عن الطعم فأعجز عن وصفه .. أكلتُ وأكلتُ وأكلتُ .. لم أستطع أن أتوقف عن الأكل حتى انتهيت من كامل الوجبة ..

- كامل الوجبة ؟!

- في الحقيقة لم أستطع مقاومة ذلك الطعم اللذيذ المصحوب برائحة تجبرك على المضي قدما دون توقف .. لم أترك منها شيئا .. هذا ما منعني من الخروج .

5

حار الجمع المستغرب في أمر هذه الوجبة التي لم يتذوق مثلها والتي منعته من الخروج .. فسأل كبيرهم مستفهمًا مستفسرا مستوضحا منبهرا .

- ما هي هذه الوجبة ؟ .. علنا نصاب بالتخمة مثلك هههه هه
- إنها السقيطة كاملة ..
- كاملة ؟
- حشرتها في جوف المصران .. لم تستثن من ذلك سوى رأسها وأقدامها وضلوعها .. أما الباقي فقد حشرته في جوف المصران حشراً .
- اضحية كاملة ألتهمتها وحدك ؟
- لو كنت مكاني لعذرتني .

6

غادره الأعيان والحيرة تملأ نفوسهم .. نقلوا لزوجاتهم خبر الوجبة التي أعاقته عن الخروج من البيت ليوم كامل .. حدثوهن عن الرائحة المثيرة والطعم السحري أيضا .. لم ينسوا أن يخبروهن أن الوجبة تؤكل فجرا .

7

في اليوم التالي امتلأ البيت نساءً .. لم تكن زيارتهن للسؤال عن حال الزوج .. بل للاستفسار عن الوجبة التي سلبت لب باقي الأزواج ..

8

منذ ذلك اليوم صارت الوجبة طقسا مهما في الواحة .. لم تتوقف النساء عن طهيها ولا الرجال عن التهامها .

لم يغب أحد عن المسجد بسبب التخمة .. بل حضر الجميع لتوبيخه على أنه كان السبب في تفريطهم في سقيطة العيد .

1

كانت فارعة الطول .. ممشوقة القوام .. تعانق السماء علواً وكبرياء .. تتمايل مع النسيم في غنج ودلال .. كان ثمرها لذيذاً ونادراً .. لم أذق له طعما مماثلاً أو مشابهاً ولا حتى مقارباً .

2

الطريف في أمرها أنها مجهولة الغارس .. كما يصر كهول العائلة أن آبائهم حدثوهم عن آبائهم أنهم ورثوها عن آوائلهم ولا يعلمون متى غُرِست ولا من غرسها .

3

تتجدد معاناتنا معها في العام مرتين .. وقت توبيرها وحين جني ثمارها .. فطولها الفارع تحتاج لمن يتحلى بالإضافة لخبرته وحنكته إلى شجاعة منقطعة النضير ليصعدها .

4

كنت مغرماً بها عاشقاً لها .. يعجبني شموخها .. يثيرني غموضها .. يطربني سخاؤها .. يخيفني فقدها .. لست وحدي في هذا الشعور .. شاركتني العائلة فيه وكل من ذاق لثمرها طعماً .

5

ما أن تثور عاصفةٌ هوجاء – وما أكثرها – إلا وسارعتُ بعد همودها إلى نخلتي الباسقة .. اتفقدها وأقف على حالها ومصيرها .. أجدها تلوّح لي من بعيد بشموخها .. تبتسم لي في خشوع .. أشكر الله أنه حفظها لنا من سطوة الريح وطغيان عواصفه .

6

كان لابد من إنقاذ السلالة ..

كانت أولى محاولاتي هي السؤال عمن يملك شبيهاً لها في الواحة .. كانت الإجابة مؤسفة في كل مرة ولا تتغير .. إنها فريدة كطعمها وحيدة في نوعها .

كنتُ أحمل في قلبي همها .. أخشى ما أخشاه أن تخونها شجاعتها ذات عاصفة فتخور قواها وتستسلم لضربات الريح القوية وتقلبات الدهر الغريبة .

7

كان لابد من محاولتي التالية

أرسلت عينات من نتاجها لواحات تجاورنا للسؤال عن النضير لها .. لم تكن الإجابة بلا فقط .. لكن مصحوبة بطلب الحصول على فسائل منها لغرسها عندهم ! ..

راق لهم طعمها فخطبوا ودها .

8

في مراحل متقدمة من الخوف والفزع على مصيرها أرسلتُ لمواطن نخيل تبعد بكثير عن واحتنا .. بل في كل مواطن النخل .. كنت انتظر الرد بخوف ..

حدث ما كنتُ اخشاه .. كانت الردود كلها نافية لوجود هذا الصنف الفريد ..

كنتُ بين فرحة كونها فريدة في عالم النخيل ما يزيد من مكانتها في نفسي .. وبين خشية فقدها إلى الأبد ..

الفناء يحاصرها بكل وسائله .

لابد من الإبقاء على السلالة .. خلودها غايتي .. بقاؤها ليس بقاءً لها وحدها بل لمن غرسها أول مرة ولمن اعتنى بها من بعده ولمن توارثها وأكل من ثمرها جيل بعد جيل .. بقاء لسلالتنا من بعدنا .. ليست ثروة لمن يأتي من بعدنا فحسب بل تراثا وميراثا .

لابد أن هناك سبيلُ لخلودها أجهله حتى الآن .

9

تعددت طرق بحثي عن السبيل .. نقلت الأمثال أن بالسؤال نتعلم .. بالاستفسار نصل للمراد .. قد ننال بالصبر ما عجزت عنه الحيل .. عليّ تتبع حكمة الأمثال فهي لا تخطئ .

حدث ما كنت أرجوه ..

بعد بحثٍ مضنٍ وإلحاحٍ في الطلب .. جاء ردٌ من مكانٍ بعيدٍ .. من أقصى الأرض .. إنه يمكن استيلاد فسائل جديدة من نخلة

فقدنا الأمل في بقائها .. زاد عجبي حين أضاف أنه يمكن استيلادها ملايين المرات وليس لمرة واحدة أو أثنتين حتى لو بلغت من العمر أرذله ..

البقاء مضمون إذاً .. سررتُ كثيرا لهذا الخبر ..

صدقت الأمثال في ما نقلته عن الأوائل .

10

كان ثمن بقاؤها باهضاً .

القلب مقابل البقاء ..

يجب انتزاع الجُمّار الأبيض الناصع منها أولا لتضمن خلود السلالة واستمرار التلذذ بطعم ثمارها الفريدة أزمانا لاحقة . الوسيلة الوحيدة للبقاء هو موتها ! .. انتزع قلبها الكهل من جوفها .. تفتيته إلى ذرات صغيرة لتمنحنا كل ذرة فسيلة جديدة .. هذا شرط البقاء والاستنساخ !

عليها أن تتخلى عن شموخها وكبرياءها لتنال الخلود ..

يا له من ثمن .. عجبتُ لمن بقاؤه في سقوطه .. من في سقوطه خلوده .. عجيب أمر أمة النخيل .

11

كان لابد من انتزاع القلب .. لا مفر .

توجهتُ حاملاً فأسي على كتفي وأملي في قلبي ودمعٌ كبحتُ جماحه في داخلي .. لم تستقبلني من بعيد كعادتها .. لم تلوّح لي بدلال وشمخ من عليائها .. استغربتُ لأمرها .. أين نخلتي ؟ اسرعت الخطى نحوها ..

12

وصلتُ لاهثا .. وقفت مذهولا ..

نخلتنا ترقد بسلام .. قومها الممشوق ممددٌ على الأرض بعد أن كان يخترق السماء .. خرّت من عليائها ..

إنهيار الكبار مؤلم وقع مريرٌ على النفس .. سقوط العظماء يمزق أنياط القلوب حسرةً وحزناً .. انهالت دموعي .. خانتني قواي احتظنتُ الجذع المهيب .. بكيتُ بين أحضانه طويلا ..

سقوطها كفاني مؤنة أرتكاب جريمة قتلها بيدي .. كانت عظيمة مهيبة حيةُ ميتة.

13

قفلتُ راجعاً حاملاً في يدي قلباً أبيضاً ينزفُ حباً.

مهرجان التمور الثالث 2015

أموماغ[1]

1

عاد إلى منزله كعادته بعد الفراغ من صلاة العشاء .. أحكم إغلاق الباب خلفه .. تلمّست يده في العتمة الموحشة طريقاً اعتادت عليه منذ سنوات بعيدة .. تناول السراج من كوته .. أناره ليبدد به عتمة السقيفة ووحشتها .. وهجه الضعيف بالكاد يعينه على إجتياز السقيفة وتخطي آلته ومعداته المتناثرة في غير ترتيب .. ارتقى الدرجات المؤدية لتمانحت الدار .

2

أكمل طريقه نحو الدرجات الأربعة المفضية لغرفة البيت الرئيسية .. استبدل ثوبه بثوب لا يختلف عن الذي نزعه إلا أنه أطول عمراً وأكثر استعمالاً .. لم يكن لمثله أن يكون له ثوب جديد كل عام .. كل ما يملكه ثوب للنوم وآخر لعمله اليومي أما الثالث الأقل استعمالاً فهو للمناسبات الطارئة من أعيادٍ وأفراح .. لم يكن ليعلقه على الجدار كرفيقيه .. بل يحتفظ به داخل سحارته الخشبية العتيقة .

[1] - المخترق بلغة غدامس القديمة .

3

نزل من جديد للتمانحت .. صعد الدرجات الأخرى المفضية لسطح الدار .. تناول عدة تمراتٍ أعقبها بشربة ماء .. تمدد بعدها على فراشه البالي ..

تطلع إلى السماء .. راقب نجومها متفقداً أماكنها التي لم تغادرها أبداً مذ وعى وعقل هذه الدنيا .. تمتم بأوراده الليلية كما اعتاد مذ علمها له شيخ الكُتّاب .

4

حمد الله على أنه ما يزال يستطيع أن يكسب قوته من عمله اليومي ، في المزارع والبساتين وجنائن البلدة الكثيرة والمحتاجة لأمثاله من الأجراء والعمال .. لكنه بدأ يشعر بقلة الطلب عليه في الآونة الأخيرة لتقدمه في السن وضعف واضح في قوته هذا عدا زيادة عدد المحتاجين للعمل بعد أن كسدت تجارة القوافل هذه الأيام .

5

نظر للقمر المتلألىء فوقه .. أحصى عدد الأيام المتبقية له قبل أن يغادر ويحل محله قمر جديد .. أجرى عملية حسابية مطولة ومعقدة تأكد له أن شهره الشمسي المفضل قد أزف .. إنه الشهر الخامس .. شهر المزاد على الماء .

6

شهره الأثير .. ينتظره دون غيره من الأشهر .. فيه يجني أفضل ربح .. يعادل ما يكسبه في عام وربما يزيد .. بعمل يستغرق منه بضع ساعات فقط .. نظر من جديد نحو القمر ، أعاد الحسبة تارة أخرى ، تيقن أنه لم يخطيء في حسابه ، نعم إنه الموعد السنوي ، ولكن لماذا لم يُكلف بعد بأمر الساقية الشهيرة ..؟ .

7

حاول أبعاد فكرة تلح على ذهنه ..

- لا أظن أنهم استعانوا بغيري في هذا العمل !..

ومن يا تُرى يكون قادرا على عمل كهذا ؟ .. كما أني أقوم به منذ سنين عديدة بنفس الهمة والإتقان !.

- لماذا لم يبلغني أحد بالاستعداد لعملي السنوي ؟ .. لا كاتب الساقية ولا أمين الدفتر ولا حتى مُجري المياه المكلف بتوزيع وتنظيم حصص

المياه على أصحابها .. كما أني لم ألتقِ بأي منهم خلال هذا اليوم ولا اليومين السابقين .

هذا العمل يعني لي الكثير .. كما أن العين تعني لأهالي الواحة الكثير .. هي عين قديمة لا يعلم أحد متى وكيف انفجر ماؤها.. وكل ما هنالك أننا ورثنا عن آبائنا وأسلافهم حسن استغلالها واستثمارها في الشرب والري وجميع المنافع .. إنها عصب الحياة هنا .. إنها تعني لي اضعاف ما تعني للآخرين .

8

أما هذه الساقية فهي أهم سواقيها على الأطلاق ليس لأنها أطول الخمسة وأشهرهن فحسب .. بل لأنها وحدها التي تمد معظم مساجد الواحة بالماء .. هذا عدا أنها تتكبد عناء حمل الماء لتسقي معظم بساتين الواحة .. لا تتوقف عن العمل لا في النهار ولا في الليل سوى عدة أيام قبل تنظيفها ..

نظر من جديد للقمر .. بحث فيه عن حل لورطته .. أعاد الحساب .. تأكد من صحة نتائجه السابقة .. استغرب كيف لم يلاحظ توقف ساقية تصكو عن العمل من ثلاث أو أربع أيام لتجفيفها ليسهل عليه العمل على تنظيفها .. هناك خطأ ما .

9

قال لي أحد العائدين من إحدى الرحلات التجارية من بر السودان إنه شاهد ساقية أكبر من هذه في بلاد السودان .. أظن أنه يبالغ قليلا هل يوجد في مكان ما ساقية أكبر من ساقية تصكو ..؟

أكد لي - بعد أن استحلفته - أنها أكبر وأطول وأعرض بكثير وأكثر ماءً .. لم أصدق كلامه وضحك مني كثيراً ، واستشهد برجلين من كبار السن حينها ، فأكدوا لي على صحة كلامه ، ولكني لا أزال أعتقد أن ساقية " تصكو" هي أكبر ساقية حاملة للماء ، ولكنهم ذكروا لي أنهم يطلقون على ساقيتهم اسماً آخر غير الساقية ، أظن أنهم قالوا لي إنهم يسمونها " نهر " ..

نعم نهر .. إنه النهر .

هل يعقل أن يكون نهرٌ في بر السودان أكبر أو أطول من ساقية تصكو العظيمة .. ؟

لما سألتهم متى يقومون بتنظيفها وتجفيفها ضحكوا من كلامي ، وقالوا إن هذا النهر لا يمكن التحكم في جريانه لا يستطيعون إيقافه ولا تنظيفه .. فماؤه جارف .

10

لكني أستطيع تنظيف الساقية - قد قمت بذلك مرارا وتكرارا - .. سوف أقوم به أيضا إذا طلب مني ذلك .. يظن البعض أن هذا العمل سهل .. لكنهم لا يعلمون حجم ما أعانيه كل مرة ألجُ فيها إلى تلك الساقية .. رغم أنهم يحبسون عنها الماء وتجفف لعدة أيام .. هذا لا ينفي الصعوبة والمشقة ، لوجود مصاعب أخرى ..

ظلمتها الشديدة ورطوبتها تزيد من خطورة ولوجها .. فأغلب هذه الساقية مسقوف وتخترق المدينة لمسافة طويلة وهي تجري تحت العديد من منازل الواحة وتمر بالكثير من مساجدها ..

كلهم يعلمون ذلك ويعلمون خطورة تنظيفها .. هم ينسون أنه عليك الولوج إلى الساقية من جهة العين ولا يمكنك التراجع حتى تخرج من نهايتها .. تكمن الخطورة الشديدة أحيانا في تعرضك لعض الحشرات والهوام ، ولا أدري لماذا يتناسون صعوبة التنفس في مثل هذه الأماكن المظلمة والضيقة والموحشة والرطبة ؟ ،

كما أنه عليك تنظيف الساقية من الأعشاب التي تنبت على جوانب وحواف الساقية الحجرية ، من ثم يتوجب عليك دفعها أمامك كي تخرجها من إحدى فتحات التهوية في سقيفة أحد البيوت التي تمر بها هذه الساقية .

11

لا أدري كيف ينسون كل ذلك الهول الذي يجب عليّ أن أعانيه ؟.. ولا يكون حديثهم إلا على ما أناله من أجر مقابل كل ذلك العناء .. صحيح أنه لم يحدث أن تعرضتُ للدغات الثعابين أثناء اختراقي لتلك الساقية العجيبة ، ولكن يحلو للكثيرين الحديث عن تعرضنا لهجمات الثعابين الكامنة في جحورها بين حجارة الساقية ، وكلما سمعتهم يتحدثون عنها أكتفي بالإبتسام فقط حتى لا يقللوا من خطورة ما أقوم به .. الصمت في مثل هذه الحالات أفضل جواب .

12

أعاد النظر إلى اكرة أخربر من جديد .. كرر كرة أخرى .. أراد أن يوهم نفسه بأنه أخطأ في الحساب .. لم يجد مبررا غير الخطأ لعدم إخطاره حتى الآن بموعد تنظيف الساقية وإزالة الأعشاب والطحالب التي تنمو فيها طيلة أيام السنة ..؟

لابد أن يكون الحساب خاطئا .. لا أعتقد أنهم كلفوا أحداً آخر غيري .. من ياترى يستطيع القيام بهذه المهمة ؟ ،

لا أعتقد أن أحداً ما يجرؤ على ذلك ، فهذه المهمة تحتاج إلى مهارات لا تتوفر إلا فيّ أنا وحدي .. ولكن أظن أنهم ربما استعانوا

بأحد من خارج البلدة من طالبي المال والمغامرين .. أذكر أنه يروى أنه لم يستطع أحد من خارج البلد القيام بهذه المهمة بنجاح من قبل .. لذلك لن يستعينوا بأحد من خارجها .. من حسن حظي ان شباب هذه الأيام لا يملك الجرءة الكافية لخوض هذه المغامرة على الرغم من معرفتهم ما فيها مغنم .

لكن لماذا لم ألتقِ بأمين الساقية ولا بصاحب دفترها ولا بمجري مياهها طيلة اليومين السابقين وكذلك اليوم ؟ .

ربما أكون قد اخطأت الحساب .. سأعيده من جديد .

13

استوى جالسا على فراشه .. نظر من جديد نحو السماء محاولاً إجراء عملية الحساب من جديد وبطريقة مغايرة عن سابقاتها مؤملاً أن يكون قد أخطأ في المرتين السابقتين .. كان الحساب صحيحا حتى هذه المرة .. طرق عنيف على باب البيت أخرجه من حساباته وأفكاره وهمومه.. نهض من فراشه .. أسرع ليرى الطارق الملحاح على بابه..

14

كان أمين الساقية بالباب .

جبروت

1

اندلعت الحرب في الشمال وصل أوارها إلى الجنوب..

توقفت قوافل الواحة عن المسير إلى هناك .. صمتت أصوات الدلالين في الأسواق .. عادت السِلال خاوية إلى البيوت .. لا شيء في السوق يمكن شراءه .

2

الجدبُ في كل مكان .

ارتفع سعر كل ما يصلح للأكل .. بعدها حلّ قحط شديد .. تبعته المجاعة بجيوشها الجرارة لتحل وتحتل كل مكان .. صار الحصول على الطعام أقرب للمعجزة .

3

اختفت النقود من الجيوب .

وهبه الله رزقا حسنا وقلبا حنونا طيبا رؤوفا .. كان يُنتظر من أمثاله تقديم العون لمن عجز عن توفير ما يشتري به ما يسد الرمق .. كانت يده ممدوة لكل طالب

معونة .. لكن لا أحد يطلب عوناً .. كان يعلم حاجة الكثيرين وعوزهم .. لكن الأنفة تمنعهم من مد اليد طلباً .

تذكر صديقاً له في حي آخر لم يره منذ حلت المجاعة بالديار .. لابد أنه بحاجة ماسة للعون .. أرسل له يدعوه للزيارة .

4

منحه الله بسطة في الجسم ..

تعادل قوته قوة عدة رجال أشداء مجتمعين .. كان بحاجة لأضعاف ما يحتاجه غيره من الطعام .. جاءته دعوة صديقه من الحي الآخر .. أسرع ملبياً .

5

مائدة عامرة كانت بانتظاره .. استقبلته رائحته من سقيفة البيت .. شعر بالمهانة .

لم تمتد يده للطعام على الرغم من حاجته الملحة لكل ما يؤكل .. شكر صديقه على دعوته .. استغرب صديقه رفضه للأكل .. سأله مستفسرا .. أجابه :

- نحن لا نأكل إلا من كدنا .. كثيرون مثلي في بيوت الواحة .. يفضلون الموت على تقبل الإحسان .

أضاف قبل أن يغادر :

- أهون عندي أن أنقل جبل تلاغودي على أن أتلقى إحسانا حتى من صديق .

6

اشتكى همه لشيخ المسجد ..

كان يرجو أن يجد عنده حلا لمعضلته .. أخبره بما قاله صديقه عن جبل تلاغودي .. طال تفكير الشيخ في حل المعضلة .. قال بعد صمت طويل وتفكير :

- الحل يكمن في تلاغودي ..
- لم أفهم !
- نقل الجبال أهون من مد اليد حاجة .. لماذا لا تنقل جبلا ؟.

فهم المعنى .. ابتسم .. غادره .

7

طاف المنادي أزقة الواحة منادياً في الناس أن جبلاً في بستان فلان يرغب في نقله ليتمكن من استغلال كامل البستان .

تسارع الرجال والشباب للعمل حاملين مكاتلهم ليعملوا في نقل تراب الجبل ..

كان يحمل مكتلين اثنين كبيرين ضعف حجم المكتل العادي .

جلس المحاسب في ضل زيتونة يراقب ويحسب لكل رجلا عدد ما نقل من مكاتل تراب .

8

كان يحمل عن نفسه مكتلاً وعن آخرين لا عائل لهم المكتل الآخر .. مع المساء اختفى الجبل من البستان .. انتقل إلى مكان آخر .. صار مكانه القديم خاليا .. وزع المحاسب على كل نصيبه من المال .

9

تلك الليلة نامت بطون كثيرة شبعاً .

طرابلس 10 نوفمبر 2015 ميلادية

1

طرق الباب بكل هدوء .. دخل بعد أن سمع الإذن بذلك من خلف الباب .. ألقى على مسامع الشخصين الموجودين بالغرفة تحية المسلمين .. رد أحد الجالسين ، بينما اكتفى الآخر بإيماءة من رأسه ..

2

لم يشعر بالرهبة التي توقعها عندما وصله طلب مقابلته من طرف أحد المسؤولين الإنجليز .. جال بعينيه حوله مستكشفا المكان .. استوقفته صورة علما كبيرة معلق على جدار الغرفة يتوسطه صليب ضخم يستقر على كامل العلم .. بعض صور وخرائط منتشرة في باقي الجدران ..

أشار المسؤول الإنجليزي بيده نحو أحد المقاعد .. قام الشخص الآخر بترجمة تلك الإيماءة بلغة عربية وبلكنة ليبية خالصة قائلا :

- تفضل بالجلوس يا حاج .

3

جلس الحاج عند المقعد الذي أشار إليه المسؤول .. تبادل المترجم والمسؤول حديثا بلغة لا يفهمها .. لكنه عرف أنها لغة الإنجليز بحكم تعامله في التجارة وسفره الكثير إلى طرابلس وتونس والتقائه بالكثير من الوكلاء والتجار الإنجليز هناك .. ازداد حذره لعلمه بصعوبة التعامل مع هذه الملة من البشر .. بعد قليل بدأ المترجم في نقل ما دار بينه وبين المسؤول قائلا :

- ياحاج .. جاءك رزق من الله على يد هذا المسؤول الإنجليزي .

لم يكترث الحاج لهذه المقدمة ولا بهذا الإغراء ، ما جعل المترجم يواصل حديثه :

- حكومة الإنجليز ترغب في تغيير مكان مكتب نائب القنصل في هذه الواحة .. يرغبون في مكان واسع ورحب لرعاية مصالح بلادهم وتجارهم ورعاياهم .

لم يبدو على ملامح الحاج الاهتمام مما جعل المترجم يضيف موضحا:

- بعد بحث استقصاء وجدوا هذا المكان الواسع الرحب .. ما أن سألوا عن صاحبه ومالكه قيل لهم ان ملكيته تعود لك ولعائلتك .

بسرعة وخبرة التاجر الماهر درس الصفقة المعروضة أمامه وقلّبها في عقله ، فسأل الحاج المترجم :

- أين يقع المكان الذي وقع عليه اختيارهم ؟

نقل المترجم السؤال للمسؤول الانجليزي .. أعاد ترجمة ما أفاده به المسؤول على مسامع الحاج :

- يقول أنه حوش كبير يقع قبالة زاوية أو مسجد صغيرة في أطراف الحي .

4

عرف المكان .. عرفه جيدا .. حل صمت بين المتفاوضين .. جال الحاج من جديد ببصره في أرجاء الغرفة .. توقف أمام العلم وصليبه الأحمر الذي يملأ ارضيته الزرقاء .. سرح بعيداً .. أعاده المترجم للصفقة المطروحة :

- ما قولك يا حاج ؟ ..

همس المترجم مضيفاً :

- المبلغ المعروض كبير ومغري يا حاج .. فكر بسرعة .. تاجر مثلك لا يفوت مثل هذه الفرصة .. كثيرون ينتظرون أقل من هذه الفرصة .

لم يكن يفكر في الصفقة .. كان يشغله أمر آخر .. أجاب :

- هذا المكان ليس للإيجار .. يمكنني أن أساعدهم على اختيار مكان آخر غير هذا .. أما هذا فليس للإيجار ولو بأضعاف هذا السعر .

نقل المترجم مستغربا رده للضابط الإنجليزي .. تبادلا حديثا طويلا بتلك اللغة الأجنبية .. قام المترجم بنقل فحوى ما جرى بينهما :

- الفرص لا تتاح كل يوم .. لماذا تفوت على نفسك الاستفادة من هذه الفرصة .. صفقة مثل هذه يتمناها أي تاجر .. لو سمع باقي التجار بها لسارعوا لتقديم عروضهم وبأسعار أقل من هذا .. كما لا تنسى حجم الاستفادة التي ستتاح لك والأرباح التي ستجنيها بالتعامل مباشرة مع التجار الانجليز وأنت تاجر وسيد العارفين .

- هذا المكان بالذات لا استطيع ايجاره ليكون مقرا لنائب القنصل .. لو أرادوه لأي غرض آخر ربما نتفق .. أما ان يكون مقرا رسميا انجليزيا فلا يمكنني الموافقة .

سارع المترجم بنقل رد الحاج .. بدأت ترتسم علامات الامتعاض والانزعاج على وجهه الأبيض .. طلب من مترجمه ضرورة معرفة السبب لكل هذا الإصرار على الرفض :

- ألا تعلم أن المبنى المواجه لهذا المبني الذي تريدون إيجاره مني هو مسجد وزاوية دينية ؟ .

بدت على الضابط ملامح الاستفهام والاستغراب بعد سماعه لترجمة مبديا استفهامه عن المانع في أن يكون مكتب نائب القنصل مقابلة لذلك المبنى ... ؟

5

تغيرت ملامح الحاج لأول مرة .. ارتسمت على وجهه علامات الجد والإصرار المشوب بالغضب على موقفه الرافض .. وقبل أن يبدأ رده جال بنظره بين المسؤول والمترجم وانتهى عند العلم الأزرق بصليبه الاحمر قائلا :

- لن أسامح نفسي أبدا .. حين أمر بذلك الشارع وأرى العلم البريطاني بصليبه الأحمر يرفرف قبالة الهلال الذي يعلو قبة المسجد والزاوية .

أوتّار[1]

1

استيقظ من نومه على نداء أبو ستة :

- يا حنان يا منان ألطف بنا يا رحمن .

تابعه مؤمّناً على أدعيته .

التفت يمينه .. كان فراش زوجته خالياً كالعادة .. وصل لسمعه صوت حركتها في المطبخ المجاور لمكان نومهما .. سبقته كالعادة .. كان حفيده الصغير يغط في نوم عميق في الجهة الأخرى من السطح .

2

ألقت عليه تحية الصباح من داخل المطبخ .

نزل بحذر إلى التمانحت .. تبيّن الدرجات بصعوبة في عتمة الفجر .. صعد لغرفة السرير .. استبدل أسمال الهجوع بثياب الخروج .

---

[1] - الكبير في السن ، الهرم ، العجوز بلغة غدامس القديمة .

3

وصل إلى المسجد القريب من بيته .. لا يزال المؤذن يصدح بأذكاره :

- يا لطيف الطف بنا .. يا كريم فرج عنا .

توضأ من الساقية المارة بالمسجد .. دخل بيت الصلاة متمتما بتسابيحه .. الماء يقطرُ من ذراعيه ولحيته .. مسحها بطرف ثوبه .. صلى ما طاب له .. جلس مسبحاً مستعينا بسبحته .. توافد آخرون أثناء صلاته .. تبادل معهم التحايا بإيماءات من رأسه .. أذّن المؤذن أذان الفجر .. وصل المصلون تباعا ..

اقيمت الصلاة على مهل .. غادرُ المسجد بعد أن قرأ شيئا من القران .. عاد إلى بيته رفقة جاره .. كان الصمت ثالثهما طيلة الطريق.

4

تناول إفطاره مع زوجته العجوز .. رائحة تنورها تملأ الفضاء .. تبادل معها أطراف الحديث .. ارتشف آخر ما في كوبه من الشاي .. مسح يديه قبل أن يغادر السطح .. نادى على حفيده ليستيقظ .

استيقظ في تكاسل .. تجهز سريعاً للذهاب إلى كتّابه .

5

قفة سعفية خالية إلا من جرة صغيرة في يسراه .. عصاه في يمناه .. سار في اتجاه البساتين .. الشمس بدأت تنشر أشعتها على الواحة .. أزاح حجراً صغيراً اعترض طريقه بعصاه .. دخل بستانه .

6

مع الضحى كان قد تفقد شياهه اطعمها وسقاها .. انتهى كذلك من سقاية بعض الجداول .. اصلح من شأن بعض السواقي التي غزاها العشب..

غادر بستانه .. كانت قفته ترزح تحت وطئة ما فيها من محصول بستانه .. بطيخة صفراء فاقع لونها أخذت مساحة كبيرة من قفته .. حبات من الطماطم وعدة رؤوس بصل وثوم وبعض النعناع توزعت على ما تبقى من فراغ القفة ..

في يمناه عصاه وجرته الصغيرة فيها ما جادت به شياهه من حليب .. كانت خطاه أبطأ بكثيرٍ في درب العودة .

7

ترك القفة بثقلها والجرة بحليبها في أول درجات السطح .. كانت عجوزه مشغولة بتحضير الغداء أو ربما بالثرثرة مع إحدى الجارات .. استبدل ثيابه وغادر من جديد .

8

عصاه في يمناه أما يسراه فمشغولة بمنشة الذباب المصنوعة من ذيل حصان شديد السواد .. عدّل من وضع طاقيته الناصعة البياض .. وقف وسط تمانحت البيت .. حدد الوقت بمستوى ظل شعاع الشمس المتسلل من فتحة السقف .... أمام إحدى المرايا وقف يطمأن على قيافته .. كان راضياً على نفسه تمام الرِضا ..

خرج إلى الزقاق الذي أفضى به إلى الشارع .. سار في شوارع الحي بخيلاء الكهول .. خطى جمع فيها بين الحذر والوقار .. تتقدمه عصاه .. لا يتحسس بها دربه بل يستعين بها على وجاهته ..

9

مر في طريقه لمجلس أقرانه بملعب أطفال الحي .. كانوا قد عادوا لتوهم من كتّاب الحي امتلأت الساحة بضجيجهم .. الغبار يعلو سماء ساحتهم .. بالكاد تتبين ملامحهم .. ما أن لمحوه حتى خرست ألسنهم

وسكنت أجسادهم .. انقشع الغبار عن وجوههم البريئة .. حفيده كان من بينهم .. أسرع ليسلم عليه .. اصطف الباقون على جانبي الطريق إجلالاً واحتراماً وتعظيماً .. مر من بين صفيهم .. ابتسم لهم .. من أحد جيوب سترته أخرج ما كانوا بانتظاره .. تمراتٍ وزعها عليهم بالتساوي .. شكروه .. غادرهم .. شيعوه بأنظارهم .. ما أن ابتلعه انحناء الشارع حتى عادوا لصخبهم ... ارتفع الغبار من جديد رفقة الضجيج .

10

ملهى صبيان الحي كان في طريقه .. أوقفوا ما كانوا منشغلين به من لهوهم .. اطلقوا عليه السلام .. رد بهمهمة .. سار في دربه .. ليصل إلى مجلس الشباب .. توزعوا على جانبي المجلس .. توقفوا عن الحديث .. تبادل معهم التحايا وانطلق في مسيرته .. ليصل إلى مجلس الكبار .. كان خاليا في هذا التوقيت من النهار .. جلهم في اعماله واشغاله .. بعد قليل سيتوافد بعضهم ليملأ فراغ المصاطب .. يكون حينها على مشارف المسجد حيث مجلس الكهول .

11

دخل ساحة تصكو حيث ينتصب السوق اليومي .. طاف حول السلع المعروضة .. ساوم وماكس وسأل واستفسر اشترى بعض

الأغراض .. غادر السوق .. سار في طريقه .. اقترب من مجلسه المعتاد بجوار المسجد .. اطلق تحيته على من بقي من أقرانه .. جلس .. أخرج من جيبه علبة تبغه فضية اللون .. طرق غطائها طرقتين بسبابته قبل أن يفتحها بدفع غطائها بإبهامه .. بإبهام وسبابة يده الأخرى تناول منها شيئا .. اغلقها قبل أن يضع التبغ تحت لسانه .. عادت لمستقرها في جيب سترته .. طرد ذبابا وهمياً بمنشاته .. اتكأ على عصاه قبل أن يشاركهم حديثهم وتحسرهم على الماضي ونقدهم للحاضر .. تلذذ بالمضغة التي تحت لسانه .

12

أذان الظهر كان موعد انفضاض المجلس .. توجهوا جملتهم إلى مواضيء المسجد .. لحق بهم كبار الحي فشبابهم ثم صبيانهم للاغتسال وإداء الصلاة .. غادر بعد الأنتهاء من فرضه وتسابيحه ووروده .. سار في نفس الدرب المؤدي إلى بيته .. طرد بمنشته ذبابا وأزاح بعصاه حصاة .

13

كان الغداء جاهزا في تمانحت البيت .. علق عصاه ومنشته واستبدل ثيابه

جلس إلى المائدة رفقة ابنه وحفيده الصغير .. في السطح تحلقت زوجته وحفيداتها وامهن على مائدة مشابهة .. تحت الغطاء كانت تفوح رائحة البازين .. ازاح الطبق الملون ليكشف عن قبة مصقولة من البازين ترتفع من الإدام أبخرة تفوح لذة وطيبة .. أجهزوا على ما في القصعة .. شرب بعدها من جرة الماء عدة جرعات .. توجه إلى سقيفة البيت ليستمتع بقيلولته .. غادر ابنه وزوجته إلى بيتهما ليستمتعا بقيلولتهما .. أجبر الحفيد على أن يستمتع بالقيلولة في بيت جده ! .

قبل آذان العصر بدقائق كان في المسجد متوضأً ينتظر الآذان .

14

بعد الصلاة والتسابيح عاد إلى بيته .. استقبله أحفاده وباقي ابنائه وبناته .. شرب معهم شاي العصرية .. تبادل الحديث مع ابنائه والضحكات واللهو مع أحفاده ..

غادرهم بعدها إلى مجلسه بجوار المسجد .. امتلأ عن آخره بالجالسين من كل الأحياء المجاورة .. كان الحديث شيقاً في مثل هذا الوقت من النهار .. سرعان ما شتت آذان المغرب شمل المجلس ليجمعهم في صف واحد في المسجد ..

15

تحلق مع المتحلقين لتلاوة جماعية لحزب من القران في إحدى زوايا المسجد .. ملأ صوتهم المسجد خشوعاً .. التأم مجلسهم من جديد بجوار المسجد انتظاراً لصلاة العشاء ..

غادر رفقة جاره بعد الفراغ من صلاتها ..

16

القمر كامل الاستدارة .. يسبح في سماء الواحة .. ينشر ضياؤه بسخاء .. كان العشاء بسيطاً خفيفاً .. تمراتٍ معدوداتٍ مع كوب لبن .. رائحة البطيخ تملأ سطح البيت .. ناصفتها زوجته لتبرد .... اختلط عبقها بروائح مماثلة قادمة من الأسطح المجاورة .. قسّمت نصفها إلى نصفين .. وضعت كل ربع على الجدار المشترك مع جيرانهم .. لحظات قليلة اختفى فيها الربعان من على الجدارين .. حل محلهما ربعان آخران من بطيخ آخر .. تمت مبادلة البطيخ كما تمت من قبل مشاركة روائحه الشهية ..

17

آن أوان الهجوع .. أصر الحفيد على أن تُحكى له قصة قبل النوم كما اعتاد كل ليلة .

حكى له الجد أولاً إحدى حكايا الواحة القديمة .. لم تعجبه قصة الجد كثيراً .. أصر على أن تعيد له الجدة إحدى قصصها العجيبة الجميلة ..

صرعهما النوم في ذروة حكايتها ..حملت حفيدها إلى مهجعه .. تمتمت بأذكارها قبل أن تهجع بدورها .

نوفمبر 2015 م

كاتب وقاص وروائي وباحث تاريخي .. من مواليد جوهرة الصحراء غدامس عام 1970 م .. خريج كلية تقنية الطيران والارصاد الجوية .. نشر قصصه في صحف مختلفة منها صحيفة العرب اللندنية وصحيفة توفرضا ، صحيفة غدامس ، صحيفة الحقيقة ، صحيفة الأيام ، صحيفة المختار ، صحيفة الأسبوع ، صحيفة قورينا ، صحيفة الناس ، صحيفة صناع الكلم ، صحيفة فسانيا ، صحيفة أخبار اجدابيا ، كما نشر انتاجه القصصي في العديد من المواقع الالكترونية .

صدر له :

قطرات من ذهب	قصص وأساطير
ألآم وآمال	قصص ومواقف
جمهورية الغسل	مجموعة قصصية
سلطان يوم الماء	قصة مصورة
لها طلع نضيد	قصة مصورة

تحرير غسوف	قصة مصورة
رسالة من الرجل الميت	رواية
الشاغت	رواية
بوابة الصحراء	مجموعة قصصية

قريبا :

كنز الاسلاف	رواية
المطبات	من الادب الساخر
قطط تلتهم ذاتها	رواية
أشليد	رواية
آيت انج	قصة
آيت أدّا	رواية
أمم امثالنا	مجموعة قصصية
المثلث	قصة مصورة

الفهرس



يحتقرون في أهل البوابة ضعفا و جبنا .... يستسهلون أمر البوابة ..

يمنون أنفسهم باغتصابها و امتلاكها .. يحشدون جيوشهم و يجرونها ..

ننتظرهم خلف البوابة .. يصلون.. يقفون أمامها .. يلوحون بقوتهم ..

يهددون و يتوعدون و يزمجرون .. يجردون سيوفهم البراقة ..

تستعصي عليهم البوابة ... يخيب ظنهم في اغتصابها .. ما إن نستل عليهم

سلاحنا المتمثل في أكياس الذهب حتى يسيل لعابهم .. يخفت بريق سيوفهم .

يطغى وهج التبر. يصبحون طوع أناملنا و رهن إشارتنا ..

يرتضون أن يكونوا عبيدا بعد أن طمعوا في السيادة .. صاحب المال هو السي

رب التجارة هو المسيطر .. مالك التبر هو من يدير اللعبة

إبراهيم عبد الجليل الإمام

من مواليد جوهرة الصحراء غدامس 1970 م.

خريج كلية تقنية الطيران المدني و الإرصاد.

كاتب و باحث في التراث.